د. مصطفى النشار
أستاذ ورئيس قسم الفلسفة بكلية الآداب
جامعة القاهرة
....

أعلام التراث الفلسفي المصري

[٢]

على بن رضوان

وفلسفته النقدية

الطبعة الأولى

الناشـــر
دار قـــبــاء
للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)
عبده غريب

اسم الكتـــاب: سلسلة أعلام التراث الفلسفى المصرى
٢ – على بن رضوان (وفلسفته النقدية)

اسم المـؤلـف : د. مصطفى النشار

سنة النشـــر : ٢٠٠٦م

رقـم الإيـداع : ١٨٢٨١ / ٢٠٠٥

الترقيم الدولى : 3 - 509 - 303 - 977

الناشـــر

دار قباء

للطباعة والنشر والتوزيع

(١٦) عمارات العبور شارع صلاح سالم – الدور الثالث –
مدينة نصر

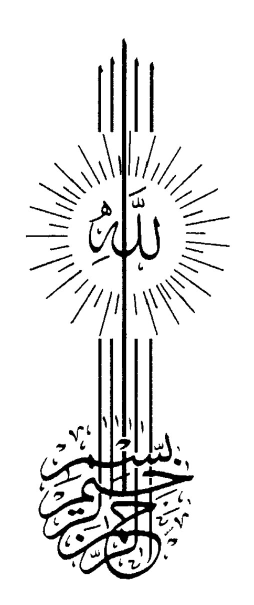
تليفاكس : ٠٢/٢٦٢١٣٦٥

محمـــول : ٠١٢/٣١٤٠٣١٥

على بن رضوان

وفلسفته النقدية





الإهداء

إلى :

عشـــاق مـــصر

إلى :

عشـــاق الفكر المصرى فى مختلف عصوره

إلى :

كل محب لمصر ولتراثها الفكرى.



تقديم السلسلة

يزخر تراث مصر الفلسفى بصفحات هامة قدمها أعلامه عبر التاريخ الحضارى الطويل لمصرنا الغالية. ولما كان تراثنا ملكنا وليس ملكًا لأحد غيرنا، ولما كنا بالضرورة أقدر على ابرازه ونفض الغبار عنه وتقديمه للأجيال الجديدة فى مصر والعالم، فلا ينبغى أن نتوانى لحظة عن القيام بهذه المهمة القومية.

وأعتبر هذه بالفعل مهمة قومية نظرًا لما درجنا عليه من إهمال واضح لهذا التراث بأشكاله المختلفة وخاصة فى مجال الدراسات الفلسفية. والحقيقة أن هذا الإهمال قد تسبب بشكل أو بآخر فى شيوع عدم الانتماء بين الأجيال الجديدة، وقد تسبب من جانب آخر فى هذه الهجمات المتتالية من قبل أعداء مصر فى كل مكان على تاريخها وإعلامها فأصبح مجالاً للنهب وللقيل والقال وأصبح كل من هدب ودب يدعى أنه صانع المنجز الحضارى المصرى. وليس ببعيد ما يدعيه اليهود هذه الأيام من أنهم صانعو الحضارة المصرية القديمة وبناة الأهرام وطاردوا الهكسوس ... إلخ!!

ولا يخفى علينا أن الدور الرائد والأهم فى الاهتمام بتراثنا الفكرى خاصة والحضارى عامة كان ولا يزال للعلماء والباحثين الغربيين. وليس

بخافٍ على أحد أن هذه الاهتمام رغم كل ما فيه من جدية وجهد علمى رصين ورائد ليس خال من الأغراض السياسية أو الأيدلوچية أو الدعائية. وفى اعتقادى أن جهدنا فى هذا المجال ينبغى أن يتجاوز ردود الأفعال إلى الأفعال، ينبغى أن يتجاوز محاولات الرد على المقولات الزائفة التى يشيعها ويروج لها الآخرون عن تراثنا وحضارتنا، إلى محاولة تقديم هذا التراث فى مختلف المجالات بروح مصرية وبجهد مصرى وبالطبع فليس أقدر على إبراز وتقديم درر ما فى تراث حضارى ما أكثر من أصحابه أنفسهم.

ولما كنت عاشقًا لمصر ولتراثها الحضارى عبر العصور، ولما كان تخصصى هو الفلسفة عامة والفلسفة القديمة على وجه الخصوص، فقد آليت على نفسى أن أقوم بجهد ما فى هذا المجال. وهو وان قل يشكل لبنة من لبنات تدعيم الانتماء إلى هذا التراث الحضارى العظيم لمصرنا الحبيبة. وهو وان تواضع يساهم فى إلقاء الضوء على مجال لازال بكراً فى اهتماماتنا القومية؛ حيث أن الاهتمام بتاريخ مصر؛ وبآثارها وبإنجازاتها فى مجالات السياسة والاقتصاد والعلوم قد بدأ منذ مطلع عصر نهضتنا الحديثة فى القرن التاسع عشر، بينما لا نزال نخطوا خطواتنا الأولى فى ميدان الاهتمام بتاريخ الفلسفة فى مصر رغم أن اسهامات المصريين فى تاريخ الفكر الفلسفى لا تقل بأى حال عن إسهامات العديد من شعوب العالم سواء فى الغرب أو فى الشرق.

والحقيقة أن المرء تتملكه الدهشة حينما يجد اهتمام الهنود واليابانيون والصينيون وغيرهم من شعوب العالم بإبراز دورهم الفلسفى عبر العصور، بينما نحن لا نزال نتصور خطأ أن إسهامنا وإسهام أجدادنا فى هذا الميدان يتضاءل لحد العدم!!

وقد آن آوان رفض هذا الشعور بالدونية والضآلة لأن الحقيقة أن تراثنا زاخر بالإنجازات الفلسفية فى مختلف العصور، لكننا أهملناه وأهملنا التركيز عليه وعلى دراسته مفضلين عليه الاهتمام بدراسة الفلسفات الغربية. ولا أدل على هذا الإهمال من النظر فى مناهج أقسام الفلسفة بالجامعات المصرية حيث لا تجد من بينها أى دراسة متخصصة لتراث مصر الفلسفى اللهم إلا عبر مواد الفلسفة الإسلامية، أو الفكر الشرقى القديم أو الفكر العربى المعاصر، والأمر فى هذه الحالة بالطبع متوقف على اهتمامات الأستاذ الذى يدرس هذه المادة أو تلك!! فربما - وهذا هو الأغلب بالفعل - لا يشير من قريب أو من بعيد لهذا التراث الفلسفى المصرى !!

وبالطبع فقد يقول القائل هنا : أين هذا التراث الفلسفى المصرى الذى ننادى بالاهتمام به ؟! ولهذا القائل أقول : أن تراث مصر الفلسفى يبدأ من «النص المنفى» فى التراث الفلسفى لمصر القديمة. ذلك النص الذى يرسم فيه مفكرو مصر لأول مرة تصورهم للإله الخالق المبدع

للوجود، وتصورهم أنه وهو يبدع الوجود أبدع معه الخير والشر ونصح بنى البشر بأن يسلكوا طريق الخير ويبتعدوا عن طريق الشر. فى هذا النص البديع يبزغ فجر الاهتمام بتفسير الوجود، ويبزغ فى نفس الوقت فجر الضمير على حد تعبير برستيد عالم المصريات الشهير. ومنذ هذا التاريخ تتواصل الأجيال فى مصر عبر العصور فى تقديم إبداعاتها الفكرية فمن بتاح حبت وايبوور وأمنموبى واخناتون فى مصر القديمة، إلى فيلون وكلمنت وأوريجين وأفلوطين فى مصر فى عصر الإسكندرية، إلى علماء وفلاسفة مصر فى العصرين المسيحى والإسلامى إلى العصر الحديث. كل جيل يقدم ما استطاعه فى ضوء العصر الذى عاشه وفى ضوء الظروف التى واكبت هذا العصر . وأستطيع أن أجزم بأنه لم يكن إنجاز المفكر المصرى فى أى عصر بأقل من انجازات غيره من مفكرى العالم فى ذات العصر.

كل ما هنالك أن علينا نحن واجب العودة إلى هذا التراث الضخم وإعادة قراءته وتحليله والكشف عن كوامنه وإبرازها للأجيال الحالية والقادمة لعلهم يفخرون بها ويواصلون نفس طريق الإبداع الذى ما انقطع يومًا، ولكنه ان خبا زمنًا فالنار دائمًا تحت الرماد. والإبداع دائمًا موجود وان غفلت عنه العيون وغطت عليه توافه الأعمال ومصالح الساسة والغزاة !!



يا أبناء مصر وبُناتها فى القرن الواحد والعشرين ومع مطلع الألفية السابعة من تاريخكم الممتد العظيم: هو تراثكم الفكرى فاهتموا به وبدراسته، هو زادكم الحقيقى فتزودوا به لمجابهة تحديات الحاضر والمستقبل، فمن لم يستفد من تراثه وهو بهذا الثراء والغنى فقد ضل الطريق، ومن لم يعرف ماضيه حق المعرفة فلا حاضر له ولا مستقبل !

يا أبناء مصر وبُناتها فى هذا الزمن والزمن القادم، لقد كانت مصر دائمًا وعبر التاريخ رائدة فى كل مجالات الحياة إلا فى الفترات التى عانت فيها من الغزاة والمستعمرين، فكونوا أنتم أيضًا روادا للإبداع والتجديد فى عصركم وفى زمنكم. وهذا التجديد وذلك الإبداع لا يكون إلا بربط حاضركم بماضيكم وبالتطلع الجاد إلى المستقبل. والقفز إلى الأمام يحتاج دائمًا إلى العودة إلى الوراء. وهذه السلسلة التى نقدمها لكم فى دراسة أعلام التراث الفلسفى المصرى تشكل الجانب الأهم من الوعى بريادة الماضى، لتكون زادًا تتزود به فى التفاعل مع متطلبات الحاضر ودافعًا للإبداع والريادة فى المستقبل.

د.مصطفى النشار

القاهرة/ ١٠ فبراير ٢٠٠١م

الموافق: ١٦ من ذى القعدة ١٤٢١هـ



تصدير

أنا عاشق لمصر ولتراثها الفكرى منذ فجر التاريخ الإنسانى الذى صنعه الإنسان المصرى الأول وحتى الآن. ولذلك فقد كان اهتمامى دائمًا منصب على إبراز الدور الحضارى الفكرى مصر عبر التاريخ. ولما كان تخصصى هو الفلسفة اليونانية خاصة، فقد وسعت دائرته ليكون الفلسفة القديمة عامة ليشمل مع الفلسفة اليونانية الفلسفات الشرقية سواء السابقة عليها أو المعاصرة لها أو التالية عليها.

وقد كان صعبًا فى البداية أن أتجه هذا الإتجاه نظرًا لاستشراء وانتشار المقولة التى تقول أن الفلسفة أصلها يونانى وأنه لا مجال للبحث عن أصل للفلسفة خارج بلاد اليونان القديمة. ولكنى بفضل الله والمثابرة على البحث واصلت أبحاثى فى أصول الفلسفة اليونانية وخاصة فى مصر القديمة وكانت النتائج مبهرة ظهرت فى عدة مؤلفات كان آخرها تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقى.

ولم يكن فى تصورى يومًا أننى سأهتم بدراسة فلاسفة مصريين آخرين إلا فى إطار الفلسفة القديمة سواء فى إطار الفكر الشرقى القديم الذى قدمت فى إطاره «المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية» و«نحو تأريخ جديد للفلسفة القديمة – دراسات فى الفلسفة المصرية واليونانية»

و«الخطاب السياسى فى مصر القديمة»، و«مدرسة الإسكندرية الفلسفية بين التراث الشرقى والفلسفة اليونانية».

أقول لم يكن فى تصورى إلا الاهتمام بفلاسفة مصر فى الزمن القديم، إلى أن طلب منى أ.د. حامد عبدالرحيم مدير مركز التراث العلمى العربى بحثًا عن على ابن رضوان الطبيب والفيلسوف المصرى القدير الذى عاش فيما بين القرنين الرابع والخامس الهجرى العاشر والحادى عشر الميلادى، فترددت فى البداية لكنه أصر على ذلك ووافقت من منطلق أنه يجب الاهتمام بكل ما هو مصرى سواء كان ذلك فى الزمن القديم أو فى كل الأزمنة . وزودنى الأصدقاء ببعض نصوص هذا المفكر الذى لم أكن أعرفه من قبل واستكملت أنا البعض الآخر من المكتبة المركزية لجامعة القاهرة. وكان ثمرة ذلك هذا البحث الذى يمثل الفصل الأول من هذا الكتاب، وهو ذات البحث الذى ألقيته فى المؤتمر الذى عقده مركز التراث العلمى بكلية العلوم - جامعة القاهرة عن هذا المفكر الطبيب . وبالطبع فقد تركز هذا البحث حول الجانب الفلسفى من فكر ابن رضوان ولما وجدت أن الطابع الغالب على فكره الفلسفى هو الطابع النقدى فقد ركزت بحثى على هذا الجانب الهام ربما لأوضح لنفسى وللباحثين فى التراث الفكرى الشرقى - الإسلامى عامة أن الاتجاه النقدى لم يغب أبدًا عن بال المفكرين الشرقيين كما يدعى ذلك

دائمًا دعاة «الغربنة» ، الذين لازالوا يرددون أن المفكر الشرقى غير قادر على الإبداع والنقد، وكل ما يمكنه أن يفعله هو المتابعة والشرح والتفسير لما يقدمه الآخرون! وهذا رأى شائع وهو رأى خطير وعنصرى يتهم العقلية الشرقية بأنها عقلية متخلفة نمطية جامدة، عقلية غير فلسفية !! والحقيقة التى أراها والتى يراها كل منصف أن العقل الإنسانى هو هو سواء كان لدى من ولد فى الجهة الغربية من العالم، أو ولد فى الجهة الشرقية منه، سواء ولد فى الشمال أو فى الجنوب!!

إن الإنسان الشرقى كالإنسان الغربى قادر على التفكير العقلى الفلسفى، والأمر ليس مجرد كلام، وإنما هو واقع فالفكر اليونانى أصله شرقى فى معظمه، والفكر الغربى الحديث لم يكن ليقوم لولا تأثره بالفكر الفلسفى والعلمى الإسلامى، كما أن تاريخ الفكر الفلسفى الشرقى والعربى زاخر بصنوف عديدة من الفكر الفلسفى النقدى . فمنذ ايبوور فى مصر القديمة تتوالى الأراء النقدية فى تراثنا الفكرى فى كل العصور. وقد بلغ هذا التيار النقدى ذروته فى العالم الإسلامى فى العصر الزاهر للحضارة الإسلامية حيث كان للمسلمين فضل نقد الفكر اليونانى وتجاوزه فى عديد من الجوانب أخص منها الجانب العلمى والمنطقى والفلسفى. وغير بعيد عن ذلك الجو النقدى الذى شاع بين مدارس الفكر الإسلامى؛ بين الفلاسفة والفقهاء، بين المدارس المشرقية والمدارس المغربية سواء فى المنطق أو فى الفلسفة، وليس ببعيد عن ذلك،

ذلك السجال الفكرى بين الفلاسفة المسلمين أنفسهم؛ بين الغزالى وسابقيه الفارابى وابن سينا من جهة، وبين الغزالى وابن رشد من جهة أخرى.

وليس ابن رضوان ببعيد عن هذه الروح السجالية الفكرية البناءة فقد كان الطابع الغالب على فكره هو هذا الطابع النقدى. ففى معظم نصوصه نلمس هذه الروح النقدية الغالبة. وليس أدل على ذلك من ذلك الحوار الفكرى العلمى الذى دار بينه وبين ابن بطلان البغدادى وقد كانت نبرة النقد بينهما حادة وعنيفة .

ولم تخلو كتاباته الأخرى من هذه النزعة النقدية كما سيتضح أمام القارئ العزيز فى تلك النصوص المختارة من رسالته فى الحيلة أو فى مقالته فى التطرق بالطب إلى السعادة.

إن على ابن رضوان مفكر من هؤلاء المفكرين الذين تجاهلهم كثيراً مؤرخو الفكر العربى الإسلامى سواء فى مجال تاريخ الفلسفة أو فى مجال تاريخ العلوم عند العرب. ولعل هذا الكتاب المتواضع عن على ابن رضوان يساهم فى رفع هذا التجاهل عن هذه الشخصية الفكرية الهامة فى تراثنا الفلسفى الإسلامى عامة، والمصرى على وجه الخصوص.

وقد قسمنا هذا الكتاب إلى قسمين؛ أولهما قدمنا فيه دراسة عامة عن على ابن رضوان، حياته وفلسفته النقدية. والثانى قدمنا فيه مختارات من نصوصه الفلسفية وخاصة ما يتضح فيها تلك النزعة النقدية على أساس أن اهتمامنا به تركز على حول ابراز هذه النزعة النقدية فى فلسفته.

والله أسأل أن يساهم هذا الكتاب فى إطار هذه السلسلة عن مفكرى مصر وأعلامها عبر عصور الفكر الفلسفى فى سد نقص نراه واضحًا فى مكتبتنا العربية والفلسفية، وأن يشجع على مزيد من الدراسات والبحوث حول على ابن رضوان المصرى وحول غيره من مفكرى مصر.

د.مصطفى النشار

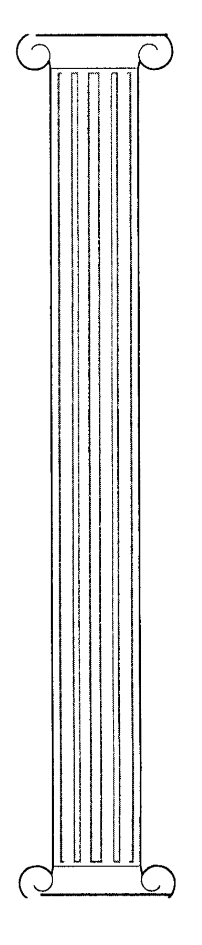
القاهرة - مدينة نصر فى٢٤ فبراير ٢٠٠١م

الموافق: ٣٠من ذى القعدة ١٤٢١هـ

الفصل الأول

على بن رضوان . .

حياته ومؤلفاته وفلسفته النقدية



مقدمة

لم تخل مصر فى أى عصر من عصورها التاريخية الممتدة إلى القرن الأربعين قبل الميلاد من فلاسفة وعلماء يحملون مشاعل التنوير ويقودون مسيرة التقدم. لقد علمت مصر العالم منذ قديم الأزل كيف تُبنى الحضارة والدولة وكيف يمكن صنع التقدم تحت قيادة نخبة من مفكريها وعلمائها الأفذاذ، فمنذ بتاح حوتب فيلسوفها فى القرن السابع والعشرين قبل الميلاد وهى تقدم الأعلام فى كل ميادين الفكر والعلم.

وقد قيل كثيراً عن أن المصريين تقليديون فى فكرهم، جامدون فى تصوراتهم والحقيقة التى تكشف عنها دائمًا قراءة الوثائق والنصوص عكس ذلك تمامًا ؛ فقد كان المفكر المصرى منذ فجر الحضارة المصرية يملك حسًا نقديًا واعيًا وساعده هذا الحس النقدى دائمًا على التجديد والابتكار على ما قدمه من سبقوه. ولا أدل على ذلك من النظر فى تاريخ الفكر المصرى منذ فلاسفة أون ومنف والأشمونين والأقصر القديمة، فقد قدموا تفسيرات شتى للعالم الطبيعى تميزت بتلك النظرة النقدية وتجاوز منهم اللاحق سابقه(1).

وهكذا فعل فلاسفة الأخلاق فى مصر القديمة، أولئك الذين شكلوا فجر الضمير الإنسانى من خلال رصد تجاربهم الحية فى الحياة

واستشراف الآفاق الأخلاقية للعالم الآخر ولضرورة وجود حياة بعد حياتهم الدنيا الأولى[٢]. وعلموا الناس كيف يمكن التجاوز عن تعدد الآلهة وعبادة الكائنات الحية والموجودات الطبيعية إلى عبادة الإله الواحد الأحد[٣].

ونفس الشيء فعله فلاسفة السياسة فى مصر القديمة، أولئك الذين انتقدوا الأوضاع القائمة وحلموا بمجتمع مثالى تتحقق فيه مُثل العدالة والنظام والاستقرار. ولم يتوقفوا عن نقد الأوضاع السيئة على مدار حوالى ألف عام إلا بعد أن تحقق لهم ما طلبوه فى وجود الحاكم القوى، المنفذ للقوانين والساهر على تطبيق العدالة. هذا ما بدا لنا من وثائق القروى الفصيح، وايبووورونفرروهو[٤].

وإذا كان ذلك فى مصر القديمة، ففى مصر فى العصر السكندرى استمرت الفلسفة والعلم فى مصر نهراً متدفقًا ومتجدداً فقدمت مصر للعالم فلاسفة وفقوا بين الدين والفلسفة كفيلون اليهودى السكندرى، وككلمنت وأوريجين المسيحيين السكندريين، كما قدمت مصر فلسفة أفلوطين فكان أفلوطين بفلسفته ثالث الثالوث فى الفكر الفلسفى القديم (أفلاطون - أرسطو - أفلوطين)[٥].

وما أن يدخل الإسلام مصر حتى يبدأ مفكروها فى استيعابه واستيعاب تعاليمه السمحة ليبدأوا عصراً جديداً فى فكرهم المتميز،

ويصلوا الماضى بالحاضر ويبرع منهم الأطباء والفلاسفة ليسهموا بشكل فعال فى مسيرة التقدم للحضارة الإسلامية، ونظرة واحدة لكتب التراجم التى كتبها ابن أبى أصيبعة أو القفطى أو غيرهما تكفى لنعرف مدى هذا الإسهام المصرى البارز فى تاريخ الفلسفة الإسلامية، فقد أشارت هذه الكتب إلى عشرات الأسماء اللامعة فى كل التخصصات.

وليس أدل على ذلك الإسهام من أن نقف وقفة أمام أحد أعلام مصر فى ظل الحضارة الإسلامية. إنه الفيلسوف والطبيب المصرى على بن رضوان إمام الطب والفلسفة فى مصر فى القرن الخامس الهجرى، الحادى عشر الميلادى.

أولاً - حياته ومكانته الفكرية

اختلف المؤرخون وكتاب السير في تقدير مكانة ابن رضوان الفلسفية والعلمية؛ فعلى حين يحط القفطي من قدره حيث كان في نظره «من المغلقين لا المحققين ولم يكن حسن المنظر ولا الهيئة» أما كتبه فلم تكن هي غاية بابها بل هي مختطفة ملتقطة مبتسرة مستنبطة «ولم يأت فيها بكبير»[٦].

أقول على حين يحط القفطي من قدره كما بينا، نجد كاتبًا مثل ابن تغري بردي يرفع من شأنه لدرجة يعتبره فيها «واحداً من كبار الفلاسفة في الإسلام»[٧].

على كل حال فمعظم الدراسين لابن رضوان يرفضون موقف القفطي من ابن رضوان ويعتبرونه موقف متناقضًا[٨] وينظرون إليه على أنه من منكري فضل ابن رضوان[٩].

أما موقف ابن أبي أصيبعة من ابن رضوان فقد كان فيما يبدو موضوعيًا ومنصفًا حيث أفرد له جزءاً من كتابه «عيون الأنباء» وأرخ له ولسيرة حياته من واقع ما كتب هو عن نفسه.



ويمكننا من واقع ما رواه ابن أبى أصيبعة نقلاً عن ابن رضوان نفسه أن نقسم حياته إلى فترتين أو مرحلتين رئيسيتين:

أولهما : مرحلة النشأة والتلمذة:

لم يحدد ابن رضوان فيما كتب عن نفسه تاريخًا لمولده وإن كان قد حاول تحديد المكان بقوله ولدت بأرض مصر فى عرض ثلاثين درجة طول خمس وخمسين درجة(١٠).

ولذلك اختلف المؤرخون حول مولده وإن كان يرجح أنه ولد فى ما بين عامى ٣٧٦هـ- ٩٨٦م فى نظر بعضهم(١١) وعام ٣٨٨هـ-٩٩٨م فيما يرى آخرون(١٢).

أما وفاته فيكاد الجميع يقرر أنها كانت فى عام ٤٥٣هـ-١٠٦١م فيما عدا القفطى الذى يجعلها بعد ذلك بستة أعوام.

وعلى أى حال ، فإن الثابت أنه ولد فى أواخر القرن الرابع الهجرى وعاش معظم حياته فى القرن الخامس. فهو من فلاسفة النصف الأول من القرن الخامس الهجرى، النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى.

وقد نشأ أبوالحسن على بن رضوان بن على بن جعفر فى مصر وعاش حياة زاخرة بالمعرفة والعلم وولد مؤهلا كما يقول هو عن نفسه



حسب قراءة دلالات النجوم، مؤهلا لصناعة الطب المتاخمة لصناعة الفلسفة وكلاهما من الصناعات التى تخدم - كما قال - طاعة الله عز وجل[١٣] .

ولذلك فهو قد بدأ تعلم الطب منذ بلوغه الخامسة عشرة من عمره، وذلك بعد أن انخرط فى سلك التعليم الأولى منذ السادسة من عمره، ويبدو أنه بدأ هذا التعليم الأولى فى إحدى القرى أو المدن البعيدة عن القاهرة، إذ إنه يقول إنه لما بلغ العاشرة انتقل إلى التعليم فى المدينة العظمى وهى بلاشك القاهرة المعزية. وقد أجهد نفسه فى التعلم الذاتى حوالى أربعة عشر عامًا كاملة، ويبدو أنه لم يتعلم على يد أحد المعلمين نظرًا لأنه لم يكن معه المال اللازم للإنفاق على تعلم الطب والفلسفة، وإن كان قد تغلب على صعوبات ومشقات التعليم من التكسب من بعض الصناعات خاصة صناعة النجوم وربما حاول - حسب ما تشير أقواله - التكسب من تعليم الآخرين وهو لا يزال يستكمل تعليمه الذاتى[١٤] .

وقد أنهى ابن رضوان هذه المرحلة الأولى من حياته حينما بلغ الثانية والثلاثين من عمره، فقد اعتبر نفسه حينئذ من مشاهير الأطباء الذين يكفيهم ما يكسبونه .

ثانيهما: مرحلة الأستاذية:

وهنا تبدأ المرحلة الثانية من حياته، مرحلة الاستاذية. وهى المرحلة التى تبدأ منذ بلوغه الثانية والثلاثين وحتى آخر حياته؛ فقد بدأ منذ هذه السنة يستقبل مرضاه بانتظام ويقوم بالعلاج والكتابة فى آن واحد.

لقد سارت حياته منذ ذلك الحين على نظام ثابت قرره بقوله «أتصرف فى كل يوم فى صناعتى بمقدار ما يغنى من الرياضة التى تحفظ البدن واغتذى بعد الاستراحة من الرياضة غذاء أقصد به حفظ الصحة وأجتهد فى حال تصرفى فى التواضع والمداراة وغياث الملهوف وكشف كربة المكروب وإسعاف المحتاج، وأجعل قصدى فى كل ذلك الالتذاذ بالأفعال والانفعالات الجميلة ولابد أن يحصل مع ذلك كسب ما ينفق. فأنفق منه على صحة بدنى وعمارة منزلى نفقة لا تبلغ التبذير ولا تنحط إلى التقتير وتلزم الحال الوسطى بقدر ما يوجبه فى كل وقت»[١٥].

والمتأمل لهذا النص البديع سيجد نفسه أمام طبيب وعالم جليل اتخذ من حياته مطية لمرضاة الله من جانب، ولممارسة مهنته على أفضل وجه ممكن من جانب آخر.

فرغم أنه عانى فيما يبدو فى أثناء المرحلة الأولى من حياته من شظف العيش وقلة الرزق[١٦]، فإنه حين اشتهر أمره وأصبح كبير أطباء



عصره لم يستغل ذلك فى الثراء على حساب مرضاه، بل اتخذ من الوسط فضيلته الكبرى حيث لم يغال فى أجره، بل لم يفرض على مرضاه أى أجر، فقد كان قصده من ممارسة مهنة الطب الالتذاذ بالأفعال والانفعالات الجميلة، لمرضاه واثقاً من أن إخلاصه وإتقانه لعمله سيمكنه من كسب ما ينفق .

لقد كانت متعته الكبرى فى هذه الحياة إلى جانب إتقان عمله وعلاج مرضاه، كانت متعته فى التقرب إلى الله بإعطاء ما يفيض عن نفقته إلى أهله وإخوانه والجيران، وتمجيد الله بالنظر فى ملكوت السموات والأرض، فضلا عن الاستمتاع بقراءة كتب الأقدمين التى كان يقرأها ثم يخزنها فى صناديق ليعرض معظمها بعد ذلك للبيع بأى ثمن، ولم يكن يحتفظ فى منزله إلا بخمسة كتب من كتب الأدب وعشرة كتب من كتب الشرع وكتب ابقراط وجالينوس فى صناعة الطب وماجانسها مثل كتاب الحشائش لذيسقوريذس وكتب روفس وأريباسيوس وبولس وكتاب الحاوى للرازى ومن كتب الفلاحة والصيدلة أربعة كتب ومن كتب التعاليم المجسطى ومداخله وما انتفع به فيه والمربعة لبطلميوس ومن كتب العارفين كتب أفلاطن وأرسطوطاليس والأسكندر وثاسطيوس ومحمد الفارابى وما انتفع به فيها[١٧] .

ومن يتأمل تلك القائمة التى احتفظ بها فى مكتبته يجد أنه بالفعل قد جمع فيها المصادر الأصلية للعلوم المتصلة بعلمى الطب والفلسفة فضلاً عن مصادر هذين العلمين الرئيسة متمثلة فى كتب أبقراط وجالينوس والرازى فى الطب، وكتب أفلاطون وأرسطو وثامسطيوس والفارابى فى الفلسفة.

لقد عاش ابن رضوان إذن حياة كان هاجسة الأكبر فيها العلم سواء فى تحصيله أو فى الانتفاع به إلى أقصى حد. لقد عاش حياة مستقرة حافلة بالعطاء وإن كان قد تغير حاله بحادثة نغصت عليه أواخر حياته، حيث سرقته خادمته التى تعهدها منذ صغرها ورباها، فخانته فى آخر عمره وهربت بنحو عشرين ألفا من الذهب كان قد أدخرها للإنفاق على نفسه وعليها. يقول ابن أبى أصيبعة إنه قد تغير عقله منذ ذلك الحين.. وكانت وفاته رحمه الله فى سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة بمصر وذلك فى خلافة المستنصر بالله أبى تميم معد بن الظاهر لإعزاز دين الله ابن الحاكم[١٨].

ثانيًا - مؤلفاته الفلسفية وطابعها النقدى

ترك ابن رضوان عددًا ضخمًا من المؤلفات معظمها رسائل ومقالات تتضمن شروحًا وتعليقات على مؤلفات العلماء والفلاسفة القدامى خاصة مؤلفات جالينوس وأبقراط وحنين والرازى وأفلاطون وأرسطو وفيثاغورث، وبعضها يتضمن مجادلات وردودًا على بعض معاصريه من أمثال ابن بطلان البغدادى.

أما البعض الثالث فيشتمل على كثير من المقالات والرسائل فى بعض المسائل الفلسفية والمشكلات الطبية وخاصة ما يتضمن منها تحليلاً لبعض الأمراض ووصفًا لكيفية علاجها.

وبالطبع فإن الغالب على تلك المؤلفات لابن رضوان هو المؤلفات العلمية الطبية؛ فقد ذكر له المؤرخون ما بين سبعين ومائة واثنين مؤلفًا؛ وقد ذكر ابن أبى أصيبعة مائة واثنين مؤلف ورسالة. نتوقف أمام المؤلفات الفلسفية منها وهى على النحو التالى(*):

١- كتاب فى أن أفضل أحوال عبدالله بن الطيب الحال السوفسطائية وهو خمس مقالات (٢١) .

٢- تفسير مقالة الحكيم فيثاغورس فى الفضيلة (٢٣).

(*) الترقيم ما بين القوسين يشير إلى رقم الكتاب فى قائمة ابن أبى أصيبعة .

٣- مقالة فى الرد على إفرائيم وابن زرعه فى الاختلاف فى الملل (٢٤).

٤- كتاب الانتصار لأرسطو طاليس وهو كتاب التوسط بينه وبين خصومه المناقضين له فى السماع الطبيعى، تسع وثلاثون مقالة (٢٦).

٥- فوائد علقها فى الأخلاط من كتب عدة لأبقراط وجالينوس (٤٩).

٦- كتاب فى حل شكوك الرازى على كتب جالينوس، سبع مقالات (٥٠).

٧- رسالة كتب بها إلى أبى زكريا يهودا بن سعادة فى النظام الذى استعمله جالينوس فى تحليل الحد فى كتابه المسمى الصناعة الصغرى (٥٤).

٨- مقالة فى نقض مقالة ابن بطلان فى الفرخ والفروخ (٥٥).

٩- مقالة فى ما أورده ابن بطلان من التحييرات (٥٧).

١٠- مقالة فى أن ما جهله يقين وكلمه وما علمه ابن بطلان غلط وسفسطة (٥٨).

١١- مقالة فى أن ابن بطلان لا يعلم كلام نفسه فضلا عن كلام غيره (٥٩).

١٢- مقالة فى التطرق بالطب إلى السعادة (٦٥).

١٣- رسالة فى الكون والفساد (٧١).

١٤- مقالة فى سبيل السعادة وهى السيرة التى اختارها لنفسه (٧٢).

١٥- رسالة فى بقاء النفس بعد الموت (٧٣).

١٦- مقالة فى فضيلة الفلسفة (٧٤).

١٧- مقالة فى بقاء النفس على رأى أفلاطون وأرسطو طاليس (٧٥).

١٨- أجوبته لمسائل منطقية من كتاب القياس (٧٦).

١٩- مقالة فى بعث نبوة محمد ﷺ من التوراة والفلسفة (٧٩).

٢٠- مقالة فى أن الوجود نقط وخطوط طبيعية (٨٠).

٢١- مقالة فى حدوث العالم (٨١).

٢٢- مقالة فى خلط الضرورى والوجودى (٨٣).

٢٣- مقالة فى اكتساب الحلال من المال (٨٤).

٢٤- مقالة فى الفرق بين الفاضل من الناس والسديد والعطب (٨٥).

٢٥- مقالة فى كل السياسة (٨٦).

٢٦- رسالة فى السعادة (٨٧).

٢٧- مقال فى اعتذاره عما ناقض به المحدثين (٨٨).

٢٨- مقالة فى توحيد الفلاسفة وعبادتهم (٨٩).

٢٩- كتاب فى الرد على الرازى فى العلم الإلهى واثبات الرسل (٩٠).

٣٠- كتاب فى المستعمل من المنطق فى العلوم والصنائع، ثلاث مقالات (٩١).

٣١- رسالة صغرى فى الهيولى صنفها لأبى سليمان بن بابشاذ (٩٢).

٣٢- تذكرته المسماة بالكمال الكامل والسعادة القصوى غير كاملة (٩٣).

٣٣- تعاليقه لفوائد كتب أفلاطون المساجرة الهوية طبيعة الإنسان (٩٤).

٣٤- تعاليق فوائد مدخل فرفوريوس (٩٥).

٣٥- مقالة فى التنبيه على ما فى كلام ابن بطلان من الهذيان (١٠١).

وإذا ما أنعمنا النظر فى هذه القائمة من مؤلفات ابن رضوان الفلسفية وجدنا أن معظمها مقالات ورسائل وتعليقات صغيرة؛ إذ ليس من بينها إلا خمسة كتب هى الواردة أمام الأرقام ١ ، ٤ ، ٦ ، ٢٩ ، ٣٠ . ومن الواضح أن مضمون هذه الكتب يعد مضمونا جدليا فى المقام الأول، ففى الأول رصد لأحوال عبدالله بن الطيب السوفسطائية وفى الثالث محاولة لحل شكوك الرازى على كتب جالينوس كما كان الثانى محاولة جدلية لنصر أرسطو على خصومه والتوسط بينه وبينهم. أما الرابع فهو رد على حجج الرازى فى العلم الإلهى وإثبات الرسل. أما الخامس فقد

ركز فيه حينما درس المنطق الأرسطى على المستعمل منه فى العلوم والصنائع، ولا يخفى علينا ما فى هذا الاتجاه من نظرة آلية نفعية لمنطق أرسطو، فهو يركز على تحليل ووصف المبادىء التى يمكن استخدامها كآلة نافعة للعلوم والصنائع، وهو من عنوان الكتاب يميل كما كان يميل أرسطو وشراحه اليونان الأوائل إلى اعتبار المنطق آلة للعلوم وليس أحدها.

ومن جانب آخر فإن معظم الرسائل والمقالات والتعليقات تحمل عناوين ذات طابع جدلى أيضاً.

أما الموضوعات التى دارت حولها تلك المجادلات فهى تتعلق بمشكلات فلسفية متعددة تكاد تغطى كافة مجالات الفلسفة المعروفة حتى عصره؛ فهناك معالجة لموضوعات منطقية، وموضوعات تتعلق بفلسفة الطبيعة والوجود، وأخرى تتعلق بموضوعات إلهية ودينية، وكذلك يتعلق بعضها بموضوعات نفسية وأخلاقية وسياسية.

وإذا ما واصلنا التحليل الظاهراتى لهذه المؤلفات الفلسفية للاحظنا أنها فى الأغلب حوارات وردود ومجادلات مع أشخاص فلاسفة وعلماء بعينهم سواء من القدامى أو من المعاصرين له. فالقائمة السابقة تشير إلى اهتمامه بفكر كل من عبدالله بن الطيب، وفيثاغورث وإفرائيم وابن زرعة وأرسطوطاليس وأبقراط وجالينوس، وأبوزكريا يهودا بن سعادة وابن بطلان وأفلاطون والرازى وفورفريوس وأبوسليمان بن بابشاذ.



وبالطبع فإننا ندرك جيداً أن تلك الرسائل والمؤلفات تتضمن ذكراً ومناقشة لأضعاف أضعاف هؤلاء الفلاسفة والعلماء. فقد كان الهاجس النقدى إذن هو الغالب على فلسفة ابن رضوان ، وكان المنهج الجدلى هو السائد فى مؤلفاته.

ثالثًا - الأسس المنطقية والمعرفية لمنهجه النقدي الجدلي

لقد كان ابن رضوان تلميذًا مخلصًا لأرسطو في المنطق والفلسفة كما كان تلميذًا مخلصًا لكل من ابقراط وجالينوس في الطب، وإن كان ذلك لم يمنعه من الاستفادة من كل ما وقعت عليه قريحته العقلية من آراء غيرهم من الفلاسفة والأطباء فضلاً عن أن تتلمذه على هؤلاء وغيرهم لم يمنعه في بعض الأحيان من أن يخرج عليهم بنفس الجرأة التي جعلته في أكثر الأحوال ينتصر لهم ويرد على خصومهم ردودًا عنيفة.

وقد بدا بوضوح مدى اعجابه بأرسطو وبمنهجه العقلي - النقدي من اتباعه النهج الأرسطي في الاهتمام بالمنطق واستعمال المبادىء المنطقية في الجدل الفلسفي والحوار العلمي في معالجة كل القضايا والمشكلات المعروضة للبحث.

وقد بدا بوضوح كذلك تتلمذه على التقليد الطبي المنطقي الذي رسخه جالينوس فهو على عكس عادة معظم الشراح والفلاسفة المسلمين لا يناقش قضية هل المنطق علم أم فن (أي أداة) بل يبدأ كتابه في المنطق بقوله: «صناعة المنطق آلة تسدد العقل الإنساني فلا يغلط ويبلغ به بسهولة إلى مطلوب من غير غلط ولا زلل»[١٩].

وهو يؤكد اتباعه النهج الجالينوسى حينما يقول فى ثنايا رده على ابن بطلان «.. وقد بين جالينوس أن الطبيب فيلسوف كامل وأنه من قصر عن ذلك فهو متطبب لا طبيب. والفيلسوف الكامل هو الذى قد حصل على العلم التعليمى والطبيعى والإلهى والمنطقى. فالطبيب هو الذى حصل كل واحد من هذه على الكمال أى بلغ فيه الكمال»[٢٠].

فابن رضوان إذن يعتبر أن المنطق والفلسفة أداة ضرورية للتخصص العلمى فى الطب، وقد ميز بين الطبيب والمتطبب من خلال امتلاك هذه الأداة الضرورية إذ إن ابن بطلان فى رأيه ليس طبيبًا متخصصًا ولا يعتد بكلامه لأنه قصر عن دراسة المنطق الأرسطى والفلسفة ولم يسلك طريق الأوائل وخاصة طريق جالينوس فى الإلمام بالعلوم الفلسفية إلى جانب العلوم الطبية.

وقد كان ابن رضوان فى كتاباته المنطقية مجددًا وتجلى تجديده فى اعتقادى فى عدة أمور :

أولها : أنه كان واضحًا فى اعتبار المنطق آلة للعلوم وأن استعمال آليات المنطق من تعريف وقياس وجدل إلخ ضرورة فى مختلف العلوم والصنائع.

وقد تكشف لنا ذلك من عنوان كتابه فى المنطق «المستعمل فى العلوم والصنائع» فهو لم يشرح المنطق كعلم وإنما ركز فيه على المستعمل من المنطق فى العلوم والصنائع.

وثانيها : إن أدراكه لهذا الغرض المهم من أغراض المنطق جعله يعرض لقضايا المنطق بشكل مبسط سهل التحصيل وجدد فى استخدام الأمثلة من خلال الواقع العلمى والعملى الذى عاش واستفاد منه. فهو لم يتابع أرسطو متابعة دقيقة كما فعل معظم الشراح والمناطقة العرب - المسلمين بل لخص كل مؤلفات أرسطو المنطقية فى كتاب واحد لم تتجاوز صفحاته ١٤٤ صفحة حسب التحقيق الذى نعتمد عليه. وهذا يعنى أنه التزم بالفعل بالغرض الذى حدده لنفسه من الكتابة فى المنطق؛ إنه التركيز على توضيح ما يمكن استخدامه منه فى مختلف العلوم والصنائع.

وثالثها : أن وعيه بهذا الغرض العملى من الكتابة فى المنطق جعله لا يلتزم فى بعض الأحيان بترتيب أرسطو للأفكار أو بعرضه للقضايا، وذلك نظرًا لأنه يتوخى دائمًا التركيز على المستعمل فى الصنائع والعلوم وليس على الشرح النظرى لقضايا علم المنطق. وانظر إليه يقول فى ثنايا عرضه للمقولات، وقد خالفنا فى ترتيبها ترتيب الفيلسوف إذ كان قصدنا بيان ما يستعمل منها فى الصنايع والعلوم، وقصد الفيلسوف تلخيص ما يستعمل منها وما لا يستعمل منها أعنى علمها فقط»[٢١].



فهو إذن يجدد ويعى الفرق بين أغراض الفيلسوف (أرسطو) فى عرضه لقضايا المنطق كعلم يمكن استخدامه كأداة للعلوم، وبين أغراضه هو حيث يعرض فقط لما يستعمل من هذا العلم فى العلوم والصنائع.

وقد استند ابن رضوان فى مجادلاته ليس على المنطق الأرسطى فقط، بل أيضًا على تحليل لقوى الإنسان المعرفية مسايرًا فى هذا أيضًا التحليل الأرسطى؛ فقد اعتبر مثل أرسطو «أن قوى النفس الدراكه كثيرة، فمنها الحواس الخمس والعقل المدرك للقضايا المتعارفة، وقوة العلم، والظن، والفكر، والرأى والحكمة والصناعة والذكاء»[٢٢]، وقد عرف كل واحدة من هذه القوى مبينًا دورها فى المعرفة.

وقد تابع أرسطو فى التمييز بين الظن والعلم، فإن كان أرسطو قد قال «إن العلم والعلوم المختلفة مخالف للظن والمظنون بأن العلم يكون على طريق الكلى وبأشياء ضرورية، والضرورى لا يمكن أن يكون على خلاف ما هو عليه، وقد توجد أشياء هى صادقة وموجودة غير أنها قد يمكن أن تكون على خلاف ما هى عليه، فمن البين إذن أن فى هذه لا يكون علم»[٢٣].

إذا كان أرسطو قد قال ذلك فى معرض تمييزه بين الظن والعلم؛ فإن ابن رضوان يلخصه بعبارة وجيزة واضحة بقوله «الظن والعلم، كل واحد منهما اعتقاد أمر من الأمور والفرق بينهما أن العلم كلى وبأشياء ضرورية

ولذلك لا يمكن أن يكون ما اعتقد، على خلاف ما اعتقد منه. والظن يكون بأشياء صادقة وليست ضرورية، ولذلك يمكن أن يكون المظنون على خلاف ما هو عليه»[٢٤].

ولقد حدد ابن رضوان فى إطار تلك التمييزات المنطقية بين حدود العلم والظن، والرأى والفكر... إلخ، حدد دور الحواس فى الاستقراء، ودور العقل فى حصولنا على القضايا المتعارفة. وميز من أنواع المخاطبات خمسا ونسب ذلك إلى أرسطو؛ «مخاطبة برهانية يلتمس بها أحد أمرين : إما التصور التام، وإما اليقين، ومخاطبة جدلية يلتمس بها أيضًا ما يغلب فى الظن من التصور والاعتقاد ومخاطبة سوفسطائية تشبه الكذب بالصدق كما يشبه الدينار البهرج والدرهم الزائف بالدينار الجيد والدرهم الصحيح ومخاطبة اقناعية تسكن إليها النفس وتذعن إلى ما فيها ومخاطبة شعرية توقع فى النفس فهم الشىء من مثاله وما يحاكيه»[٢٥].

وقد تحدث بعد ذلك عن أهم هذه الأنواع من المخاطبات، ويعنينا هنا فى إطار الحديث عن أسس نزعته النقدية رؤيته للمخاطبة الجدلية باعتبار أنه فى اعتقادى قد استخدمها كثيرا فى مجادلاته ومحاوراته مع خصومه ومعاصريه.

فالجدل «مخاطبة بين سائل ومجيب، تستعمل فيه صناعة المنطق التى هى آلة يستعان بها على معرفة الخير والشر فى الأعمال والصدق

والكذب فى الأقاويل، والحق من الباطل فى العلوم، وتستعمل أيضًا فى الصنائع مثاله المخاطبات التى يستعملها جالينوس فى الإبطال والاثبات»[٢٦].

وقد حدد ابن رضوان أربعة أوجه لمنفعة الجدل، «أحدها أن يصير لنا صناعة يمكننا بها بأيسر وأسهل ما يكن أن نحتج فيما نقصد للحجة فيه بالأقاويل الصادقة. والثانى : أن نخاطب كل واحد بالآراء التى يرى أنها صادقة عنده لننقله بما يعترف هو بصدقه إلى الصواب، والثالث أنه إذا تشككنا فى أى النقيضين هو الصادق سهل علينا معرفة أيهما هو الحق. والرابع إثبات مصادرة كل صناعة بالآراء الذائعة الصدق»[٢٧].

وقد برع ابن رضوان فعلاً فى الاستفادة من معرفته بأصول الجدل ومنافعه فى مجادلته لابن بطلان فى تلك الرسالة التى ناقض فيها مقولة ابن رضوان عن أن الفرخ أحر من الفروج. وكانت بعنوان «فى أن الفروج أحر من الفرخ». فقد مهد ابن رضوان لبيان تهافت حجج ابن بطلان، بحجج جدلية شكك من خلالها فى معرفته المنطقية بفن السؤال. انظر إليه يقول فى رسالته فى الرد على ابن بطلان «أنه لا خبرة له بالمنطق، وذلك أن السؤال مجموع نقيضين معا ارتبطا بحرف السؤال، فلو عبر هكذا : هل الفرخ أبرد من الفروج أو لا يسلم إليه فإذا كان عبر بذلك فقد أبان عن نفسه إنه لم يعلم أنه ليس بسؤال وأنه ظن

أن ما ليس بسؤال هو سؤال مشهور وجوابه مسطور... ولذلك يفسد السؤال اللهم إلا أن يراد فيه قياسهما إما إلى بدن الإنسان وإما إلى شيء آخر ثالث ليصح السؤال فإذا قد أسقط من الكلام ذلك فقد سقطت الحكاية سوفسطائية (أى تمويه ودهثمه بالباطل)(٢٨).

وانظر إليه يضيف إلى ما سبق قوله «فغلط (يقصد ابن بطلان).. غلطات كثيرة منها أنه وضع اليبرودى سائلا والسائل لا يجب عليه أن يعضد سؤال ببيان ولا يرمى فيه بسهام(٢٩).

لقد انتهى من هذا التشكيك فى مطلع المسألة وطرحها من قبل خصمه على النحو الذى طرحت به، انتهى إلى أنه «لا معرفة له ولا فهم له وأن كلامه كله هذيان يهذر به فقط»(٣٠).

لقد كان ابن رضوان إذن يلتمس فى آليات الجدل سندا له فى رفض دعاوى ابن بطلان وفى التشكيك فى معارفه وعلومه، والقارىء لهذه الرسائل الخمس المتبادلة بين ابن بطلان وابن رضوان يلفت انتباهه أن ابن بطلان كان أعذب ألفاظا وأكثر ظرفا وأميز فى الأدب من ابن رضوان إلا أن ابن بطلان لم يكسب جولة علمية واحدة من ابن رضوان ذلك لأنه كان يحارب بسلاح اللغة بينما كان ابن رضوان أكثر علمًا وموضوعية(٣١)، فضلاً عن أن استخدامه لآليات الجدل العلمية قد ساعده فى حسم الجولة العلمية لصالحه.

رابعًا - نزعته النقدية فى فلسفته الأخلاقية

تدور فلسفة الأخلاق كما هو معروف حول البحث عن سبل السعادة الإنسانية وجوهر هذه السعادة. وقد اتفق فلاسفة اليونان الكبار (سقراط - أفلاطون وأرسطو) على التوحيد بين الفضيلة والسعادة وإن كان قد حدث بعض الاختلاف بينهم فى التفاصيل تبعًا لمنطق مذهب كل واحد منهم.

وقد تابعهم فى التوحيد بين الفضيلة وحياة السعادة معظم فلاسفة وعلماء عصر الإسكندرية وعلى رأسهم جالينوس، وربما كان احترام ابن رضوان الشديد لجالينوس راجع ليس لفضله فى علم الطب فقط، بل أيضًا لأنه اعتبر أن مهنة الطب من أشرف المهن و«أن الأطباء ينبغى لهم أن ينافسوا الملائكة فى فعل الخير»[٣٢].

وقد أخذ ابن رضوان هذا المفهوم الفلسفى اليونانى للفضيلة وعبر عنه خير تعبير فى العديد من مقالاته ورسائله.

لقد نقل عنه ابن أبى أصيبعة قوله فى سيرة حياته «وكان العيش عندى فى الفضيلة ألذ من كل عيش»[٣٣].

وقد لخص ابن رضوان فى هذه العبارة الموجزة مفهمومه العام للربط بين السعادة والفضيلة وقد كشف بعد ذلك فيما رواه عن تفاصيل حياته

مضمون هذه الحياة الفاضلة والفضائل التي ينبغي أن يتحلى بها العالم الفاضل في حياته الخاصة؛ فأكد على أنه كان يقضي يومه في علمه وتطبيب مرضاه ويكتفي بما هو ضروري لعيشه في نفقه «لا تبلغ التبذير ولا تنحط إلى التقتير وتلزم الحال الوسطى بقدر ما يوصيه العقل». وقد وصف لنا أخلاقه بقوله: «أتعرف ما يمكنني تعريفه من الأمور المزمعة وآخذ له أهبته وأجعل ثيابي مزينة بشعار الاخيار والنظافة وطيب الرائحة، وألزم الصمت وكف اللسان عن معايب الناس، وأجتهد ألا أتكلم إلا بما ينبغي، وأتوقى الإيمان، ومثالب الآراء فأحذر العجب وحب الغلبة وأطرح الهم المرضى والاغتمام، وأن دهمني أمر فادح أسلمت فيه إلى الله تعالى وقابلته بما يوجب التعقل من غير جبن ولا تهور، ومن عاملته عاملته يدا بيد لا أسلف ولا أتسلف إلا أن اضطر إلى ذلك وان طلب مني أحد سلفا وهبت له ولم أرد منه عوضا. وما يبقى من يومي بعد فراغي من رياضتي صرفته في عبادة الله سبحانه بأن أتنزه بالنظر في ملكوت السموات والأرض وتمجيد محكمها وأتدبر مقالة أرسطوطاليس في التدبير وآخذ نفسي بلزوم وصاياها بالغداة والعشي. وأتفقد في وقت خلوتي ما سلف في يومي من أفعالي وانفعالاتي فما كان خيرا وجميلاً ونافعًا سررت به وما كان شرًا أو قبيحًا أو ضارًا اغتممت به ووافقت نفسي بأن لا أعود إلى مثله»[٣٤].

وإذا أنعمنا النظر فى هذا النص المهم، لخرجنا منه بالمبادىء الأخلاقية التى كان يؤمن بها ابن رضوان فى حياته وأدركنا إلى أى حد طبق مقولة التوحيد بين العلم والفضيلة من ناحية، والتوحيد بين الفضيلة والسعادة من ناحية أخرى؛ فقائمة الفضائل التى أعلن عنها وتمسك بها هى :

١ - التزام الحد الوسط بين التبذير والتقتير (فضيلة الكرم) على الطريقة الأرسطية.

٢- فضيلة التأمل والمعرفة النظرية (عبر القراءة وتأمل ملكوت السموات والأرض) وهى الفضيلة النظرية ، فضيلة الفلاسفة بالتعبير الأفلاطونى والأرسطى.

٣- فضيلة الصمت وكف اللسان عن معايب الناس، وهذه فضيلة مصرية أصيلة لاشك إن كل المصريين ورثوها عن جدهم الأكبر بتاح حوتب منذ القرن السابع والعشرين قبل الميلاد.

٤- التزام الحد الوسط فى الكلام؛ فلا كلام إلا وقتما ينبغى مع تجنب مثالب الآراء وحب الغلبة.

٥- الشجاعة فى مواجهة أفدح الأمور، فهو حينما يواجه أى أمر فادح يواجهه بما يوجب التعقل من غير جبن ولا تهور. وهذا هو تعريف الشجاعة عند أرسطو.

٦- الأخذ بفضيلة محاسبة الذات؛ فهو يتفقد فى خلوته ما كان من أمر أفعاله وانفعالاته فى أثناء يومه، فيسر لما كان جميلاً خيراً منها ويعاهد نفسه على ألا يعود إلى القبيح منها مرة أخرى.

٧- الإيمان بالله تعالى وعبادته وتمجيده.

فنحن إذن أمام فيلسوف يوفق خير توفيق فى فلسفته الأخلاقية العملية اليومية بين مقتضى العقل والتأمل والمعرفة الفلسفية التى صرح بأنها فى معظمها مأخوذة من مقالة التدبر لأرسطو، وبين إيمانه بالله سبحانه وتعالى وما يقتضيه هذا من التحلى بالفضائل الدينية من الزهد فى مطالب الحياة الدنيوية والاقتصار منها على ما هو ضرورى، إلى التقرب إلى الأهل والإخوان والجيران بمساعدتهم وتقديم العون لهم فى كل الأحوال.

وقد عبر ابن رضوان فى مقالته «فى التطرق بالطب إلى السعادة» خير تعبير عن كل هذه المبادىء الأخلاقية موضحًا مصادره اليونانية التى استند إليها فى تأكيد ما ذهب إليه.

إنه يقدم لنا أقوال كل من جالينوس وأرسطوطاليس والإسكندر وأبقراط فى السعادة الإنسانية مركزاً على ما فيها من تأكيد على ربط الأقوال بالأفعال، والتمسك بالأفعال الفاضلة الخيرة التى يرضى عنها الله كما يرضى عنها الناس.

أما الأساس النظرى الذى اعتمده ليكون منطلقًا لرؤيته النظرية لأخلاق الإنسان عمومًا والطبيب خصوصًا، فهو قول أرسطو «إن السعادة هى الحياة بالعقل» وأن العمر الطيب اللذيذ هو العمر مع العقل؛ إذ ليس أحد يختار الحياة وعقله عقل صبى»[٣٥].

لقد تبنى ابن رضوان المفهوم الأرسطى للفضيلة والسعادة. واتضح ذلك تمامًا حينما اختتم مقالته السابق الإشارة إليها بقوله «لا أفضل من إدراكات النظر الفلسفى، وكلما كان إدراك الإنسان أفضل وأسعد على الحقيقة. وأفضل الإدراكات وأوفقها يقينا وصحة هى الإدراكات الفلسفية أعنى النظر فى الحكمة واستعمال العدل والسخاء والعفة فى نفقات المال. فإذن السعادة الإنسانية على اليقين والصحة هى التفلسف علما وعملاً»[٣٦].

وفى ضوء حياة ابن رضوان وتمثله للقيم الأخلاقية العملية، وفى ضوء اعتناقه لهذا المفهوم الأرسطى للسعادة والفضيلة حدد الخصال التى ينبغى أن تتوافر فى أى طبيب فى سبع خصال هى :

١- أن يكون تام الخلق صحيح الأعضاء، حسن الذكاء، جيد الرواية، عاقلاً ذكورًا خير الطبع.

٢- أن يكون حسن الملبس، طيب الرائحة ، نظيف البدن والثوب.

٣- أن يكون كتومًا لأسرار المرضى لا يبوح بشىء من أمراضهم.

٤- أن تكون رغبته فى إبراء المرضى أكثر من رغبته فيما يلتمسه من الأجرة ورغبته فى علاج الفقراء أكثر من رغبته فى علاج الأغنياء.

٥- أن يكون حريصاً على التعلم والمبالغة فى منافع الناس.

٦- أن يكون سليم القلب عفيف النظر صادق اللهجة لا يخطر بباله شىء من أمور النساء والأموال التى شاهدها فى منازل الأعلاء فضلاً من أن يتعرض إلى شىء منها.

٧- أن يكون مأمونا ثقة على الأرواح والأموال لا يصف دواء قاتلاً ولا يعلمه ولا دواء يسقط الأجنة يعالج عدوه بنية صادقة كما يعالج حبيبه(٣٧).

ولاشك أن ابن رضوان قد اتخذ من هذه القيم والمبادىء الأخلاقية سواء على المستوى النظرى أو على المستوى التطبيقى العملى سنده ومعياره الذى يقيم به أخلاق أطباء عصره، وقد جاءت انتقاداته الحادة لهم نتيجة عدم تمسكهم بهذه الأخلاق الفاضلة، ونتيجة لجهلهم بما ينبغى على الطبيب الفاضل من التزام بالمبادىء الدينية والأخلاقية الرفيعة.

لقد كتب ابن رضوان فى رسالته عن دفع مضار الأبدان بأرض مصر فقرات شديدة الوضوح والقوة فى نقد الأطباء واستند فى ذلك على بعض أقوال جالينوس، وفى ظنى أنه استند فى هذه الأقوال المشهورة

لجالينوس حتى لا يظن ظان أنها انتقادات مستحدثة فقط من ابن رضوان، بل هى انتقادات ينتقد بها الطبيب الجاهل منذ قديم الزمان!

لقد تحدث ابن رضوان عن خمس وعشرين حيلة كلية ينبغى على الطبيب معرفتها حتى يمكنه حفظ صحة مرضاه وعلاج أمراضهم، واعتبر مع جالينوس أنها مسألة صعبة وأن إتقان كل هذه الحيل الضرورية لا تتوفر إلا بعد بذل الجهد الوفير وعدم الركون إلى الراحة والكسل. كما اعتبر أن هذا الاجتهاد فى التحصيل والعلم إنما أجره على الله لأنه «ان فات الطبيب فيه حظ الدنيا لم يفته حظ الآخرة»[٣٨].

ومن ثم حذر من التراخى والإهمال فى أداء الواجب إذ إن «عقوبة الطبيب الجاهل فى الآخرة ليست صغيرة، بل عذابه أزيد كثيراً من عذاب غيره من اللصوص وقتله الأنفس»[٣٩].

ومن هنا فقد شدد ابن رضوان على ضرورة التزام الطبيب بالزهد فى مطالب الحياة الدنيا حتى يمكنه إتقان صناعة الطب وجنى ثمارها الخيرة، وقد عبر عن ذلك بقوله : «إياك أيها الطبيب اياك والانشغال عن صناعتك بلذات البهائم من الأكل والشراب والنكاح وجمع المال والمفاخر بحب الصلف والمركوب والملبوس وغير ذلك من الأشياء التى يفاخر بها وتموه على العوالم بمخالطة ذوى اليسار وتطويل اللحية والشيب فإن الاشتغال بذلك كله يعوقك عن التخرج من صناعة الطب»[٤٠].

وقد يتساءل سائل هنا : لماذا ينشغل ابن رضوان كثيراً بالحض على الأخلاق الحميدة والتزام الطبيب بها ؟!

وتأتى الإجابة منه مباشرة لأنه وجد أن أطباء مصر فى عصره قد تخلق معظمهم بهذه الأخلاق التى يحذر منها لدرجة أنهم صاروا يرغبون فيما لا ينبغى أن يتخلقوا به مطلقًا؟ «فقد صارت (أى تلك الرذائل المذمومة فى الطبيب) بحيث يرغب فيها أطباء مصر اليوم أكثر من كل شىء»[٤١]، وليس لنا من تعليق إلا القول : ما أشبه أمس ابن رضوان بحاضر الطب فى مصر المعاصرة!!

إن ابن رضوان لا يقدم تلك الانتقادات اللاذعة لأطباء عصره إلا من خلال واقع عاصره وعايشه، وهو يضرب لنا أمثلة من أحوال أطباء عصره عانى منها هو شخصياً وكان له فيها روايات يذكرها فيما يلى : «لقد قصدنى رجل منهم فى بعض الأوقات وسألنى عن أدوية تطويل شعر اللحية ويولد فيها الشيب فتعجبت منه وسألته أن يصدقنى عن حاله فقال : إن النافع اليوم بمصر فى صناعة الطب، طول اللحى مع الشيب وحسن الملبوس والمركوب والمفاخرة بذلك. ألا ترى أن الناس يعظمون من اجتمعت له هذه الخصال ولا ينظرون فى شىء آخر ! فقلت له: صدقت وهذا الذى صيّر باعة الأدوية أحدق من الأطباء بها، وأعرف جماعة منهم صاروا من وجوه أطباء هذه المدينة ثم أوصيته بما

ينبغى وحذرته وعرفته ما قال جالينوس من أن الطبيب الجاهل أشر على الأبدان من الوباء الحاضر ومن اللصوص فإن اللصوص يرغبون فى الأموال والطبيب الجاهل يأخذ الروح والمال وما أظنه قبل منى هذه الوصية.

ولقينى أيضًا منذ أيام بعض أطباء الفسطاط المشهورين وأخذ بيدى ولامنى على تأخرى عن الرؤساء وجمع المال وانشغالى عن ذلك بقراءة الكتب والعمل بها والدرب فيها وإهمالى أمر ما الناس عليه من محبة الدينار والدرهم فقلت: أن جالينوس ليس يرضى أن يسمى هؤلاء الأطباء الذين يواظبون على أبواب الرؤساء بوابى الأبواب، وإنما هو أخس من ذلك ولست أرضى لنفسى هذه الحالة فانتهرنى وقال هذه منحسة ما أظنها تتخلى عنك ومرض لا يتخلى ومضى وتركنى»(٤٢).

تلك أذن كانت بعض أحوال الأطباء والطب فى عصر ابن رضوان وهى ليست بعيدة عن أحوال الأطباء والطب فى عصرنا الحاضر. وكل ما هنالك اختلاف صور الانحراف ووسائله!! لقد كان ابن رضوان واعيا بأن الطب علم يتطلب بذل الجهد فى النظر والعمل، فى القراءة والدرس من ناحية، وفى الحرص الشديد على ممارسة أعباء المهنة بالتحلى بأقصى قدر من الفضائل الإنسانية من ناحية أخرى ومع ذلك فإن مأخذنا عليه هو محاولته المستمرة الارتكان إلى أقوال السابقين وخاصة جالينوس فى

كل شيء فذلك لحرص قد يؤدى به فى كثير من الأحيان إلى الارتكان إلى التقليد واهمال الإبداع والتجديد سواء فيما يتعلق بالدرس العلمى للأمراض ولطرق علاجها، أو فيما يتعلق بأخلاق الطبيب وممارساته العملية.

وعلى كل حال، فقد كان ذلك غاية العلم والمعرفة فى عصر ابن رضوان، ومن ثم فإن تقويمنا له ولآرائه ينبغى أن يلتزم حدود ذلك العصر وما كان سائدًا فيه، وحينئذ سنجده كان بحق إمامًا عظميًا فى علم الطب وفى فلسفته على حد سواء.

خامسًا - نزعته النقدية فى فلسفة البيئة

إن من أطرف جوانب اهتمامات ابن رضوان الفلسفية والطبية معًا، اهتمامه بتحليل البيئة وتأثيرها فى الكائنات الحية وعلى رأسها الإنسان والحيوان والنبات وقد قدم ابن رضوان فى كتاباته كتابًا رائدًا فى هذه الاتجاه الذى يمكن أن يعتبر اتجاهًا جديدًا فى الدراسات الفلسفية وإن لم يكن كذلك فى الدراسات الطبية، حيث كان من بين الرسائل الابقراطية رسالة فى الأهوية والمياه والأماكن وهى تعتبر بلا ريب على حد تعبير جورج سارتون - أول رسالة فى علم المناخ الطبى حيث وصف فيها أثر طبيعة الأرض والمناخ فى الصحة والأخلاق(٤٣).

إن ريادته كانت فى ظنى فى أنه ولأول مرة يدرس طبيعة المكان بعناصره البيئية المختلفة وتأثيره فى الإنسان، وقد جاءت الدراسة فى ذلك الكتاب الرائد مطبقة على أرض مصر.

إن كتاب ابن رضوان «رسالة فى الحيلة فى دفع مضار الأبدان بأرض مصر» «جاء مغطيا وبشمولية لم تغفل النظرة الفاحصة المتمعنة للبيئة السائدة فى مصر وأثرها على صحة الإنسان وسلامة البيئة من الأوبئة. كما عالج مواضيع أساسية مثل أسباب الأوبئة وعناصر مناخ مصر، وفصول السنة، وبقدر تعلقها بأمراض الإنسان وسلامة بيئته وأثر ذلك

ليس فيه فحسب بل على الإنسان القادم إلى مصر أيضًا وفى مجال الأمراض فقد استعرضت الأمراض المختلفة التى كانت تظهر فى تلك الفترة»[٤٤].

لقد قدم ابن رضوان فى هذه الرسالة دراسة بقدر ما هى طبية وجغرافية جاءت دراسة بيئية أيكولوچية تربط بين عدد من المتغيرات التى تعطى الأسباب والنتائج بطرق جدلية تؤكد علمية المنهج وشموليته ودقته وتكامل فقراته مما يحاكى الكتب المعاصرة التى تعالج المواضيع المشابهة[٤٥].

إن القارئ لفهرس هذا الكتاب فقط يتأكد له بالفعل مدى تشابه معالجة صاحبه لموضوعه مع الدراسات العاصرة فى نفس المجال، فقد جاء الكتاب فى خمسة عشر فصلا بدأت بفصل عن صفة أرض مصر ومزاجها، تبعه الفصل الثانى الذى يعالج اختلاف هواء مصر وما يتولد فيه، ثم فصل عن الأسباب الستة المحيطة بالصحة والمرض فى أرض مصر، ثم آخر عن فصول السنة بأرض مصر، وبناء عليه انتقد **فى الفصل الخامس** ما أعطاه ابن الجزار من أسباب وخم أرض مصر واعتبرها أسبابا ليست صحيحة.

وفى الفصل السادس : درس المدينة الكبرى بمصر فى هوائها وجميع أحوالها، **وفى الفصل السابع** درس أسباب الوباء وسائر الأمراض المقبلة،

وفى الثامن أجمل كل ما سبق وشرح أمر الأسباب السيئة المحيطة بالصحة والمرض.

أما الفصل التاسع فقد خصصه لدراسة الحيلة الكبرى فى حفظ الصحة ومداواة الأمراض **وفى العاشر** تحدث عن ما ينبغى للطبيب أن يفعله فى الأبدان بأرض مصر ثم تحدث **فى الفصل الحادى عشر** عن صفة تدبير الأبدان بمصر، **وفى الثانى عشر** ما يصلح رداءة الهواء والغذاء بأرض مصر، **وفى الثالث عشر** ما يدفع ضرر الأبدان الواردة فى مصر، **وفى الرابع عشر** نفع الأدوية التى تستعمل فى دفع المضار ونفع الأبدان، **وفى الفصل الخامس عشر والأخير** تحدث عن أنه ينبغى اختيار السكن بأرض مصر رغم ما قد تفعله فى الأبدان من رداءة.

إن تصفح هذه الموضوعات المتخصصة التى عالجها الكتاب حول بيئة مصر ومناخها وطبيعة المكان وتأثيره على الصحة والمرض يوضح بما لا يدع مجالاً للشك أننا أمام كتاب رائد فى فلسفة البيئة، وفى فلسفة طب البيئة إن صح هذا التعبير.

ولعل هذه الريادة هى ما جعلت ابن رضوان يقدم رؤيته بطريقة يغلب عليها المنهج الجدلى حتى يمكنه بالطبع تحديد الأسباب وربطها بالنتائج من جهة، فضلا عن أن هذه الطريقة قد تفتح الباب واسعًا لمناقشات ودراسات مستقبلية حول نفس الموضوعات من جهة أخرى.

ولعلنا نلتمس عناصر هذا المنهج الجدلى فى تحديده لعناصر البيئة المصرية وبيان طبيعة كل عنصر عبر مناقشة أقوال السابقين فى كل عنصر من هذه العناصر.

فلقد استفاد ابن رضوان من الدراسات السابقة وخاصة لأبقراط وجالينوس حول تحديد المزاج على أرض مصر ومناخها وانتهى إلى القول بأنه «قد استبان أن المزاج الغالب على أرض مصر، الحرارة والرطوبة الفضيلة(*)، وأنها ذات أجزاء كثيرة وكان هواؤها وماؤها رديئتين»(٤٦)، وأنه «قد استبان أيضًا أن هواء أرض مصر ليسرع إليه التغيير لأن الشمس لا يلبث عليه شعاعها المدة الطبيعية فمن أجل هذا كثر اختلاف مواد مصر»(٤٧).

ولما كان هواء مصر كثير الاختلاف لأسباب متعددة «فيلزم ضرورة – كنتيجة لذلك – أن يكون الروح الحيوانى الذى فينا بمواصلة لهذا الهواء غير لازم أيضًا لطريقة واحدة، فيصير من أجل ذلك ما فى الأوعية والعروق ومن أخلاط البدن لا يلزم حدا واحدًا»(٤٨).

وبعد أن يبين ابن رضوان عناصر البيئة المصرية وخصوصية الهواء والماء والرطوبة فيها من خلال استقراء الواقع ومناقشة أقوال السابقين، يبين أثر هذه العناصر مجتمعة فى صحة أبدان المصريين وكذلك فى

(*) أى الخارجة عن المجرى الطبيعى كرطوبة المطر التى تحدث فى فصل الصيف.

صحة ما يعيش فيها من حيوانات وفى طبيعة ما ينبت بها من نباتات، فيقول فى نص قد يحتاج إلى تحليل من المختصين فى الدراسات البيئية المعاصرة سواء من علماء الجغرافيا وعلماء الحيوان والنبات فضلاً عن المهتمين من الأطباء وعلماء الاجتماع والانثروبولوچيا، يقول : «فهذا هو السبب الأول والأعظم فى أن صارت أرض مصر على ما هى عليه من سخافة الأرض وكثرة الغض ورداءة الهواء والماء، إلا أن هذه الأشياء ليست تحدث فى أبدان المصريين استحالة محسوسة إذا جرت على عادتها من أجل أُلف المصريون لهذه الحالة، وشاكلت أبدانهم لها فإن كل ما يتولد بأرض مصر من الحيوان والنبات مشابه لما عليه مزاج مصر فى سخافة الأجسام فى الأمراض، وقصر المدد، كالحنطة بمصر فإنها وشيكة الزوال سريع إليها العفن فى المدة اليسيرة، ولا يظن أن أبدان الناس وغيرهم يخالف ما عليه الحنطة من سرعة الاستحالة، كيف لا يكون الأمر كذلك وأبدانهم ضعيفة من هذه الأشياء فحال إذا ما يتوالد من النبات بأرض مصر والحيوان فى السخافة وكثرة الفضول والعفن وسرعة الوقوع فى الأمراض حال سخافة أرضها وعفنها وفضولها وسرعة استحالتها لأن النسبة واحدة، ولذلك أمكن حياة الحيوان فيها وانبات النبات فإن هذه حيث ناسبتها ولم تبعد عن مشاكلتها أمكنت حياتها فأما الأشياء الغريبة فإنها إذا دخلت مصر تغيرت فى أول لقائها لهذا الهواء حتى إذا استقرت وألفت الهواء واستمرت عليه أصبحت مشاكله لأرض مصر»[٤٩].

وبعد أن حدد ابن ضوان هذا الإطار العام للعلاقة بين عناصر البيئة وبين حياة الإنسان والكائنات الحية الأخرى فى أرض مصر، بعد ذلك بدأ فى الاقتصار على دراسة تأثير ذلك فى صحة الإنسان المصرى وأخلاقه بموضوعية قد يبدو منها لأول وهلة أن الرجل ينتقد المزاج المصرى وأخلاق الإنسان المصرى كما تصور بعض الدراسين[٥٠]، لكن الحقيقة أن دراساته هنا يغلب عليها الطابع العلمى الموضوعى، فهو يحلل الأسباب ويرصد النتائج من منظور علمى تجريبى وليس من منظور فلسفى - نقدى!

فقد بدأ ابن رضوان بتحديد العناصر الستة المختصة بالصحة والمرض عمومًا فى أرض مصر خصوصًا وهى :

١ - الهواء المحيط بأبدان الناس.

٢- ما يؤكل وما يشرب.

٣- الحركة والسكون.

٤- النوم واليقظة.

٥- الاحتقان والاستفراغ.

٦- الأحداث النفسانية[٥١].

(**) يقصد به رطوبة الصيف والخريف الفصلية الخارجة عن المطر الطبيعى كالمطر الحادث فى الصيف.

وكانت النتيجة التى توصل إليها بعد استقراء ما هو كائن فى مصر من هذه العناصر التى اعتبرها أسبابًا للصحة أو للمرض، كانت النتيجة أن الغالب بالجملة على أهل مصر الأغذية الرديئة وليست تغيير مزاجهم ما دامت جارية على العادة، وهذا أيضًا مما يؤكد أمرهم فى السخافة(*) وسرعة الوقوع فى الأمراض، وأيضًا فأهل الريف أكثر حركة ورياضة من أهل المدن وكذلك أصح أبدانا لأن الرياضة تقوى أبدانهم»[٥٢] أما «أهل الصعيد أخلاطهم أرق وأكثر دخانية وتملئا وسخافة لشدة حرارة أرضهم من أهل أسفل أرض مصر وأهل أسفل الأرض تكون أكثر استفراغ فضولهم بالبراز والبول لفتور الحرارة فى أرضهم واستعمالهم الأشياء الباردة والغليظة»[٥٣].

وإذا كانت هذه هى النتائج التى توصل إليها فيما يتعلق بأجسام المصريين ومزاجهم وصحتهم العامة، فإن اللافت للانتباه هو ما توصل إليه من نتائج على الصعيد الأخلاقى للمصريين؛ حيث انتهى إلى القول: «فأما أخلاق المصريين فبعضها شبيه ببعض لأن قوى النفس تابعة لمزاج البدن وأبدانهم سخيفة سريعة التغير قليلة الصبر والجلد، لذلك أخلاقهم تغلب عليها الاستحالة والتنقل من شىء إلى شىء، ومنهم من خصه الله تعالى بالفضل وحسن الخلق وبراءة من الشرور»[٥٤].

(*) يقصد ابن رضوان بالسخافة هنا الرقة والضعف التى عليها أجساد المصريين مما يسهل مرضها.

إن أخلاق المصريين إذن عند ابن رضوان متشابهة باعتبار أنها تابعة لمزاج أبدانهم، ولما كانت أبدانهم سخيفة سريعة التغير قليلة الصبر والجلد، فإن أخلاقهم عنده يغلب عليها الاستحالة والتنقل من شىء إلى شىء!!

وإذا استثنينا هذه الفئة التى تحدث عنها واعتبرها فئة اختصها الله تعالى بالفضل وحسن الخلق، فهل معنى ذلك أن أخلاق المصريين عموماً بمثل هذا السوء وعلى هذا النحو من التبدل والتغير الذى تحدث عنه ابن رضوان؟!

سؤال هام نطرحه على الدارسين المعاصرين لأخلاق المصريين، وإن كان ابن رضوان نفسه قد أجاب عنه فى ختام كتابه حينما قال : «إن شرور أنفس المصريين يغلب عليها فى نظره الشر إلا أن شرورهم ضعيفة وبسيطة ويمكن علاجها، فأخلاق النفس كما يقول هو نفسه «يمكن مداواتها كما قيل فى كتب الأخلاق»[٥٦] .

إن ابن رضوان إذن كان من أنصار النظرية الأرسطية القائلة بأن الأخلاق مكتسبة وعلى المعلمين أن يقوموا بدورهم فى إصلاح نفوس مواطنيهم، وبالطبع فإن هؤلاء المعلمين موجودين فى مصر تبعاً لقول ابن رضوان «أن من المصريين من اختصه الله تعالى بالفضل وحس الخلق وبراءة من الشرور» .

وبالطبع فإن المرء قد لا يملك إلا أن يوافق ابن رضوان على استخدامه المنهج العلمى فى دراسة طبائع المصريين وأخلاقهم ونسبتها إلى البيئة التى يعيشون فيها وتؤثر على أبدانهم وأخلاقهم لكن الذى قد تختلف معه فيه هو التساؤل حول طبيعة الأخلاق الإنسانية، وهل هى تابعة بالفعل لاختلاف البيئات والأماكن والأزمنة إلخ؟! أم أنها ينبغى أن تستند على الطبيعة الثابتة للإنسان بما هو كائن عاقل قادر على التجاوز عن المطالب الدنيئة للنفس الشهوانية المرتبطة ببيئة مكانية معينة وبزمان معين تعيش فيه؟!

إن هذا التساؤل وغيره لم يطرح على ذهن ابن رضوان لأنه التزم فى دراساته بحدود المنهج العلمى الوصفى - الاستقرائى، ولم ينتقل منه- رغم قدراته الجدلية والنقدية الفائقة - إلى تلك النظرة المجردة - الفلسفية المجاوزة للواقع ولحدود المكان والزمان.

لقد كان ابن رضوان إذن عالمًا مجتهدًا فى تحصيل علوم الأوائل والاستفادة منها فى دراساته المختلفة، لكنه لم يصل قط إلى مرتبة الفيلسوف القادر على الإبداع الذى يتجاوز حدود الزمان والمكان، إنه كان العالم الذى يستفيد من بعض النظرات والآراء الفلسفية للفلاسفة السابقين والذى يمكنه تطبيقها فى مجال دراساته العلمية بحيث تكسبه هذه القدرات الجدلية - النقدية التى لاحظناها فى دراستنا هذه، ولذلك فهو العالم ذو النظرة الفلسفية، وليس الفيلسوف ذا النظرة العلمية.

الهوامش

١ - انظر ما كتبناه عن «فلسفة الطبيعة وتفسير نشأة الوجود فى مصر القديمة» بحث نشر بالمجلة العلمية لكلية الآداب - جامعة القاهرة، مجلد (٥٥) العدد الرابع - أكتوبر ١٩٩٥م .

٢ - انظر على سبيل المثال ما كتبناه عن : «بتاح حوتب رائد الفكر الأخلاقى فى مصر القديمة، نشر بمجلة الكلية الآداب - جامعة الإمارات العربية المتحدة، العدد السابع ١٩٩١م، وأعيد نشره بالعدد الأول من مجلة الجمعية الفلسفية المصرية، يونيه ١٩٩٢م.

٣ - انظر ما كتبناه عن اخناتون - الملك الفيلسوف فى كتابنا «فلاسفة أيقظوا العالم» ، الطبعة الثالثة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة ١٩٩٩م.

٤ - انظر : تحليلنا للفكر السياسى فى مصر القديمة فى كتابنا : الخطاب السياسى فى مصر القديمة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٨م.

٥- انظر فى ذلك كتابنا : مدرسة الأسكندرية الفلسفية بين التراث الشرقى والفلسفة اليونانية، دار المعارف، الطبعة الأولى ١٩٩٥م.

٦- انظر : تاريخ الحكماء لابن القفطى، طبعة ليبزيغ ١٩٠٣م، ص٤٤٣ نقلاً عن مقدمة تحقيق : خمس رسائل لابن بطلان البغدادى ولابن رضوان المصرى، حققها د. يوسف شخت ود.ماكس مايرهوف، مطبوعات الجامعة المصرية -كلية الآداب، المؤلف رقم ١٣، ص(١).

٧- نقلاً عن : أحمد عرفات القاضى، الفيلسوف المصرى على بن رضوان - الجزء الأول - مذهبه الفلسفى، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٩٦م، ص٣٨.

٨- د. أحمد القاضى : نفس المرجع السابق، ص٣٦ .

٩- انظر : د. عبدالرحمن بدوى : مقدمة تحقيقه لكتاب : مختار الحكم ومحاسن الكلم للمبشر بن فاتك، الطبعة الثانية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٠م، نقلاً عن : د. أحمد القاضى، نفسه ص٣٧.

١٠- ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، طبعة مصر ١٢٩٩-١٨٨٢ ، جـ٢ ص٩٩ نقلاً عن تحقيق شخت ومايرهوف لخمس رسائل، سبق الإشارة إليه، ص٣ .

١١- انظر : مقدمة تحقيق سلمان قطاية لمقالة فى التطرق بالطب إلى السعادة لعلى ابن رضوان، مجلة تاريخ العلوم العربية، التى تصدر

عن معهد التراث العلمى العربى بجامعة حلب، المجلد الثانى، العدد الثانى، تشرين الثانى ١٩٧٨م، ص٧٢.

١٢- انظر : أحمد القاضى : نفس المرجع السابق، ص٤٢.

١٣- انظر ابن أبى أصيبعة : نفس المصدر، نقلاً عن مقدمة تحقيق شخت ومايرهوف، ص ٣ .

١٤- انظر نفسه، ص٤ .

١٥- نفسه ، ص٤ .

١٦- لقد ذكر ابن أبى أصيبعة أن والده كان يعمل فرانا بالجيزة من ديار مصر. انظر : نفسه ص٦ .

١٧- نفسه، ص ٤ ، ٥ .

١٨- نفسه ، ص ٦ ، ٧ .

١٩- على بن رضوان : كتاب المستعمل من المنطق فى العلوم والصنائع، تحقيق د. أحمد عرفات القاضى، مكتبة النهضة المصرية ١٩٩٦ ، ص٢.

٢٠- على بن رضوان : مقالة فى التنبيه على ما فى كلام المختار بن الحسن بن عبدون البغدادى من الأغاليط، منشورة ضمن خمس رسائل لابن بطلان البغدادى ولابن رضوان المصرى، تحقيق يوسف

شخت ود.ماكس مايرهوف، مطبوعات الجامعة المصرية - كلية الآداب ، المؤلف رقم ١٣ ، ص٤٠ .

٢١- على بن رضوان : المستعمل من المنطق، ص٢٣.

٢٢- نفسه ، ص٧٠ .

٢٣- أرسطو: التحليلات الثانية، المقالة الأولى، ف٣٣ ، ص٥٨٨ (٣٠-٤٠)، الترجمة العربية لأبى بشر متى بن يونس، تحقيق د.عبدالرحمن بدوى فى : منطق أرسطو ، جـ٢ مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٩م، ص٤١٢-٤١٣.

٢٤- ابن رضوان : نفس المرجع السابق، ص٧٠-٧١.

٢٥- نفسه، ص ٧١ - ٧٢ .

٢٦- نفسه ، ص٩٥ .

٢٧- نفسه ، ص ٩٥ - ٩٦ ، وقارن ذلك بحديث أرسطو عن فوائد الجدل فى كتابنا : نظرية العلم الأرسطية، الطبعة الأولى بدار المعارف بالقاهرة ١٩٨٦، ص٧٧-٨١ .

٢٨- ابن رضوان : مقالة فى التنبيه على ما فى كلام المختار بن الحسن بن عبدون البغدادى من الأغاليط، ضمن الرسائل الخمس، ص٤١-٤٢.

٢٩- نفسه، ص٤٢ - ٤٣ .

٣٠- نفسه، ص٤٣ - ٤٤ .

٣١- انظر مقدمة المحقق د. رمزية محمد الأطرقجي لرسالة «في الحيلة في دفع مضار الأبدان بأرض مصر» لابن رضوان، نشر وزارة التعليم العالي والبحث العلمي - جامعة بغداد - مركز إحياء التراث العلمي، بغداد ١٩٨٨ ، ص٥-٦ وهامش ص٦ .

٣٢- د. سلمان قطايه في تقديمه لتحقيق مقالة في التطرق بالطب إلى السعادة لعلي بن رضوان، سبق الإشارة إليه، ص٧٣.

٣٣- نقلاً عن : تحقيق شخت ومايرهوف للرسائل الخمس ، ص٣ .

٣٤- نقلاً عن : نفس المرجع ص٥ .

٣٥- علي بن رضوان : مقالة في التطرق بالطب إلى السعادة، ص٨٧.

٣٦- نفسه، ص٨٨ .

٣٧- ابن أبي اصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء نقلاً عن : مقدمة شخت ومايرهوف للخمس رسائل ، ص ٧ ، ٨ .

٣٨- ابن رضوان : رسالة في الحيلة في دفع مضار الأبدان بأرض مصر، ص٥٧.

٣٩- نفسه.

٤٠- نفسه ، ص٥٧، ٥٨.

٤١- نفسه ، ص٥٨.

٤٢- نفسه.

٤٣- جورج سارتون، تاريخ العلم - الجزء الثانى ، ترجمة لفيف من العلماء ، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة ١٩٧٨م ، ص٢٢٩.

٤٤- د. خالص الأشعب، مقدمة تحقيق كتاب رسالة فى الحيلة فى دفع مضار الأبدان بأرض مصر لابن رضوان، ص٣ .

٤٥- نفسه.

٤٦- ابن رضوان : رسالة فى الحيلة فى دفع مضار الأبدان بأرض مصر ، ص٢٤.

٤٧- نفسه، ص ٢٥.

٤٨- نفسه، ص ٢٥-٢٦.

٤٩- نفسه ، ص٢٧.

٥٠- انظر من هؤلاء : الدكتور أحمد عرفات القاضى فى كتابه «الفيلسوف المصرى على بن رضوان، الجزء الأول - مذهبه الفلسفى، ص١٣٤ وما بعدها.

٥١- ابن رضوان : نفس المصدر السابق، ص ٢٨.

٥٢- نفسه، ص ٣٠.

٥٣- نفسه.

٥٤- نفسه.

٥٥- نفسه، ص٨٧ .

٥٦- نفسه.

المصادر والمراجع

أولاً - المصادر :

١- **ابن رضوان المصرى وابن بطلان البغدادى** : خمس رسائل، تحقيق د. يوسف شخت، ود. ماكس مايرهوف، مطبوعات الجامعة المصرية - كلية الآداب، المؤلف رقم (١٣)، القاهرة ١٩٣٧م .

٢- **ابن رضوان : مقالة فى التطرق بالطب إلى السعادة** ، تحقيق وتقديم سلمان قطاية، مجلة تاريخ العلوم العربية، المجلد الثانى، العدد الثانى، مطبوعات جامعة حلب، تشرين الثانى ١٩٧٨م.

٣- **ابن رضوان : رسالة فى الحيلة فى دفع مضار الأبدان بأرض مصر،** تحقيق د.رمزية محمد الأطرقجى، تقديم د.خالص الأشعب، مركز إحياء التراث العلمى العربى بجامعة بغداد، وزارة التعليم العالى، بغداد ١٩٨٨م.

٤- **ابن رضوان : كتاب المستعمل من المنطق فى العلوم والصنائع،** تحقيق د.أحمد عرفات القاضى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٩٦م.

ثانيًا - المراجع :

٥- **ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء**، طبعة مصر، القاهرة ١٢٩٩هـ، ١٨٨٢م.

٦- **د. أحمد عرفات القاضى: الفيلسوف المصرى على بن رضوان**، الجزء الأول- مذهبه الفلسفى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٩٦م.

٧- **د. أحمد عرفات القاضى: الفيلسوف المصرى على بن رضوان** : الجزء الثانى - فكره المنطقى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٩٦م.

٨- **أرسطوطاليس: التحليلات الثانية، الترجمة العربية القديمة لأبى بشر متى بن يونس**، تحقيق د. عبدالرحمن بدوى ضمن منطق أرسطو، الجزء الثانى، مطبعة دار الكتب المصرية والقاهرة ١٩٤٩م.

٩- **جورج سارتون، تاريخ العلم، الجزء الثانى**، ترجمة لفيف من العلماء، دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٧٨م.

١٠- **د. عبدالرحمن بدوى: مقدمة تحقيقه لكتاب: مختار الحكم ومحاسن الكلم للمبشر بن فاتك**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٠م .

١١- د. مصطفى النشار : **نظرية العلم والأرسطية : دراسة فى منطق المعرفة العلمية عند أرسطو**، دار المعارف بالقاهرة، الطبعة الأولى ١٩٨٦م.

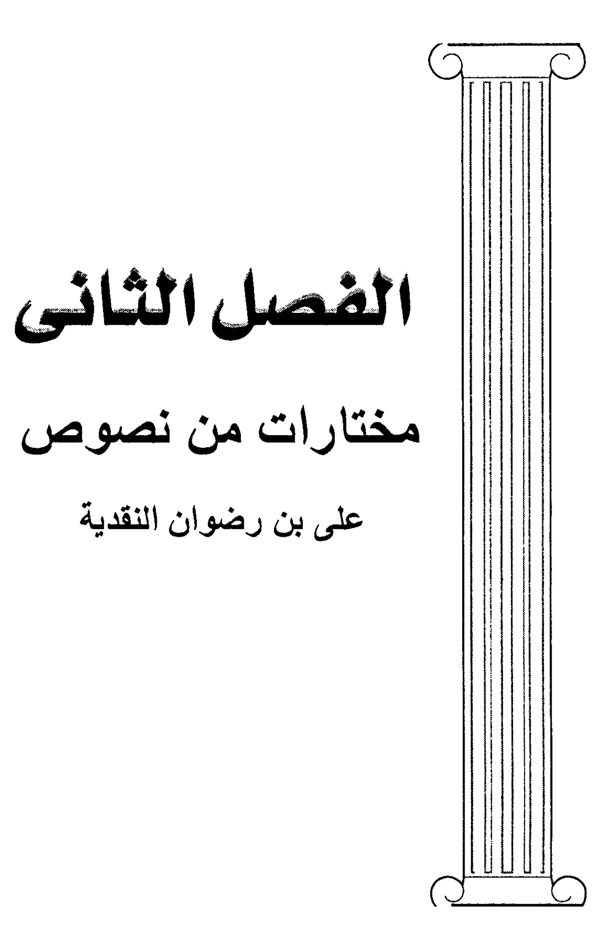
١٢- د. مصطفى النشار : **مدرسة الإسكندرية الفلسفية بين التراث الشرقى والفلسفة اليونانية**، دار المعارف بالقاهرة ١٩٩٥م.

١٣- د. مصطفى النشار : **بتاح حوتب رائد الفكر الأخلاقى فى مصر القديمة**، نشر بمجلة كلية الآداب - جامعة الإمارات العربية المتحدة - العين، العدد السابع ١٩٩١م .

١٤- د. مصطفى النشار : **فلسفة الطبيعة وتفسير نشأة الوجود فى مصر القديمة**، نشر بمجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة، مجلد ٥٥ ، أكتوبر١٩٩٥م.

١٥- د. مصطفى النشار : **فلاسفة ايقظوا العالم**، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٩٩م.

١٦- د. مصطفى النشار : **الخطاب السياسى فى مصر القديمة** ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٨م.



الفصل الثانى

مختارات من نصوص

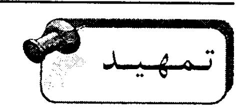
على بن رضوان النقدية



أربع رسائل من «الرسائل الخمسة»(*) المتبادلة

بين على بن رضوان وابن بطلان البغدادى.

(*) نشر هذه الرسائل الخمسة : د.يوسف شاخت ود.ماكس مايرهوف، مطبوعات الجامعة المصرية، كلية الآداب ، رقم (١٣) ، مطبعة بول باربيه بمصر، بدون تاريخ.



تمهيد

كان على بن رضوان معاصراً لأبى الحسن الطبيب البغدادى المعروف بابن بطلان وكان الأخير كما ترجم له القفطى وابن أبى أصيبعة طبيب ومنطقى نصرانى من أهل بغداد تتلمذ على أبى الفرج عبدالله بن الطيب وعلى أبى الحسن ثابت بن إبراهيم بن زهرون الحرانى الطبيب.

اهتم ابن بطلان بابن رضوان وتوجه إلى مصر للقائه، ويبدو أنهما اختلفا ونشأ بينهما نزاع وصراع علمى ترتب عليه خروج ابن بطلان من مصر غاضبا من ابن رضوان متوجهًا إلى انطاكية. وأثمر هذا النزاع العلمى بينهما مراسلات عديدة طريفة قال معها المؤرخون أنه لم يكن أحد منهم يؤلف كتاباً ولا يبتدع رأيا إلا ويرد عليه الآخر ويسفه رأيه فيه.

ويقول ابن أبى أصيبعة فى «عيون الأنباء فى طبقات الأطباء» أن ابن بطلان كان أعذب ألفاظًا وأكثر ظرفًا وأميز فى الأدب وما يتعلق بها. وان كان ابن بطلان أقل فى تآليفه من فيلسوفنا ابن رضوان فلم يذكر له ابن أبى أصيبعة إلا ثلاث عشر مؤلف أغلبها مقالات كتب اثنين منها فى الهجوم على ابن رضوان والرد عليه فى قضية «الفرخ والفروج» . فقد كتب ابن بطلان مقالته الأولى وهى الرسالة الأولى التى ننشرها ضمن هذه الرسائل الثلاث – ينتقد فيها رأيا لابن رضوان؛ فقد كان الأخير يرى



أن الفرخ أحر من الفروج بمقاييس منطقية مركبة من مقدمات صادقة. فاحتج عليه ابن بطلان ونقده نقداً عنيفًا فى هذه المقالة واتهمه بالغباء وعدم الفهم ومخالفة رأى الأطباء فى هذا الأمر!

وقد قرأ هذه المقالة على ابن رضوان فرد عليها برسالة نبه فيها - حسب عنوانها - إلى الأغاليط التى وقع فيها ابن بطلان وقد اتهمه فى هذه المقالة بالحمق والهذيان والدهشة وترديد الأباطيل.

وبالطبع فقد وصلت هذه المقالة التى رد فيها ابن رضوان على أباطيل ابن بطلان، وصلت إلى الأخير فكان أن رد عليها هو الآخر فى رسالة ثانية ناقضة فيها وسميت هذه المقالة من مقالاته بالمقالة المصرية لأنه كتبها فى الفسطاط سنة ٤٤١هـ.

ويبدو أن هذه المقالة كانت من القوة وشدة الهجوم بحيث جعلت ابن رضوان يوجه إليه رسالة شديدة اللهجة يتهمه فيها بالسفسطة ثم يوجه رسالته الأخيرة إلى أطباءمصر جميعًا يحذرهم فيها من اتباع آراء ابن بطلان ويوجههم إلى ما فيها من أخطاء فادحة .

وقد أنهى مقالته الأخيرة تلك بالتنبيه عليهم ألا يلتفتوا إلى شىء مما يقوله ابن بطلان ويدعوهم فيها أن ينزلوه منزلة إنسان «قد خولط ووسوس» ، وأن يعتبروا كلامه مجرد هذيان وهذر لا يستحق أن يلتفت إليه أو أن يرثى لصاحبه.

ورغم ما فى هذه الرسائل من طرافة وغرائب علمية شغلت هذين العالمين الفيلسوفين، ورغم ما فيها من نقد فاق حد الحوار النقدى الموضوعى وتجاوزه إلى التجريح والسب أحيانًا. أقول رغم هذا فإن قراءة هذه النصوص تشى بالجو العلمى النقدى الذى كان يسود بين علماء ذلك العصر وفلاسفته، وتشى بصورة الخلاف الفكرى الحاد بين المصريين ويمثلهم هنا ابن رضوان المصرى، والبغداديين ويمثلهم هنا ابن بطلان البغدادى.

ولنلتفت ونحن نقرأ هذه الرسائل إلى عدة حقائق منها :

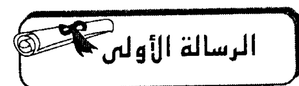
١- استناد العلماء فى هذا العصر على البراهين الاستدلالية التى تأخذ صورة الاستدلال الصورى العقلى المنطقى، وذلك على حساب الاهتمام بالاستدلال الاستقرائى الذى يهتم باللجوء إلى ما يحدث فى الواقع والنزوع نحو التجريب ورفض الحجج الصورية.

٢- استنادهم إلى الحجج النقلية، وتقديرهم لآراء السابقين وخاصة أرسطو وجالينوس والحرص على عدم مخالفة ما ذهبا إليه. وجاء ذلك بالطبع على حساب الدراسة الواقعية التجريبية للظاهرة موضوع الدراسة.

٣- وهذه وتلك يقودانا إلى نتيجة مؤداها أن العلم فى هذا العصر كان قد تجمد بصورة أو بأخرى عند حدود العلم الأرسطى الجالينوسى.

وان كانت الحسنة الوحيدة فى هذا الاتجاه العلمى الذى روج له ابن رضوان ولم يخالفه فيه كثيراً ابن بطلان كان لا يزال يحافظ على التقليد الطبى السكندرى وهو تدعيم الارتباط بين المنطق والطب. وان أخذ هذا الارتباط صورة الحفاظ على العلم بصورته الاستنباطية - الصورية . وهذا ما أدى بالضرورة إلى التخلف العلمى والجمود غير المحمود، ووقوف العلماء عند حدود الخبرة وحفظ آراء السابقين وعدم الحرص على الإبداع والتجديد.

النـــص



الرسالة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم وبه[(١)] نستعين رب يسر يا كريم[(١)]

مقالة ابى الحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون[(٢)] (ابن بطلان)

فى أن الفروج أحر من الفرخ

قال غرضنا فى هذه المقالة مناقضة من قال أن الفرخ احر من الفروج بمقاييس منطقية مركبة من مقدمات صادقة ينتج[(٣)] منها أن الفروج احر من الفرخ وهذا ضد ما يراه الأطباء اوردناها على جهة الشعبذة التى يزينها خفة اللعب وسرعة الدك فالعالم يعرف موضع الشبهة اللازمة والغبى يظن أن[(٤)] جميعها محال[(٥)] ودلسة ومنافعها ثلاث[(٦)]: بقياس المتعلمين تطريقًا لهم ورياضة فانه إن[(٧)] كان الجسم يقوى بالرياضة فأحرى ذلك بالقوة العقلية، وبقياس العلماء أن يظهر فضلهم فى حلول الشكوك الغامضة إذ كان ترخيص[(٨)] العلماء للآراء الماحلة يثبت لنا معرفتهم بالمذاهب الصحيحة، وبقياس المذعنين تبكيتا

(١) ـ (١) ناقص من ت .

(٢) زائد فى م : وهو المصنف لدعوة الأطبا المذكورة فى هذا الكتاب قبل هذه.

(٣) ت : وينتج.

(٤) ناقص من ت .

(٥) ت : محالا .

(٦) م : ثلاثة ، ت : ثلثة .

(٧) ت : إذا .

(٨) ت : برحض (كذا).

لهم وهجنة فانه من عجز عن هذه المسألة الحقيرة والحق ناصره فيها فهو عما سواها اشد عجزاً لاسيما إن قعدت به القوة الفكرية، وسميتها الشعبذة العقلية لانها تجرى فى خدعة العقول الضعيفة مجرى شعبذة الطرقيين لحواس العامة وجعلت[١] أقسامها أربعة:

١ - فى ذكر السبب الموجب لتصنيف هذه المقالة.

٢ - ايراد[٢] حجة من قال ان الفرخ احر من الفروج ونقضها.

٣ - فى تقديم مقدمات لا ريب فيها عند العلماء يبين منها (ص ٣ ت) مقاييس ينتج منها[٣] ضد ما قاله[٤] الأطباء وذكر شكوك واعتراضات تجرى فى عرض هذا[٥] الكلام.

٤ - ايراد مسائل تتعلق بالبيض والحضان والفراريج، فهذه اقسامها[٦]، وما لأحد أن يرد قياساتنا[٧] كيف اتفق بل يصنع قياسًا قياسًا ويظهر فيه مواضع الشبه اللازمة متصوراً أنه من ضعف عن نفى الشبه الباطلة فهو عن اثبات الحق أشد ضعفًا ثم يجيب عن المسائل بجواب يطبق[٨] المفاصل يزن فيه الجواب بمثقال السؤال من غير زيادة ولا نقصان ونحن نستعين بالله من[٩] زمان يكون العلم فيه أحد[١٠] أسباب[١٠] الحرمان ونستعيذ من بلد لا يتأتى للعالم أن يكون والجاهل سيان.

---

(١) ناقص من ت . (٢) ت : فى إيراد . (٣) ناقص من ت .
(٤) ت : قالته . (٥) ناقص من ت . (٦) ت : أقسام هذه المقالة.
(٧) ت : مقاييسنا. (٨) م : يطابق، وفى الهامش : يطق.
(٩) ت : على . (١٠) - (١٠) م : سبب ، وفى الهامش : أحد أسباب.

الباب الأول في سبب تصنيف هذه المقالة

حكى بعض الأطباء فى دار الوزارة بالقاهرة المعزية عن اليبرودى الطبيب أنه عايا أطباء المصريين بمسألة الزمهم بها[1] أن يكون الفروج احر من الفرخ لسرعة نهضته والفرخ ابرد لبطء حركته، فقلت له هذا سؤال مشهور وجوابه مسطور وانما المسألة الحسنة البديعة: لم صار كل بيض يتناوب على حضانة الذكر والأنثى يخرج الفرخ منه ضعيفاً يحتاج إلى الزق كالحمام والعصافير، وكل بيض تنفرد الأنثى بحضانة[2] وهى أضعف الزوجين وأبرد بقياس الأنثى من الحمام وليس لها نائب عند طلب الغذاء يكون[3] فرخها[3] مستغنيًا[4] عن[5] الزق باللقط[5] كالدجاج والحجل والدراج، فسألنى عن الجواب فأعلمته أن هذه مسألة طبيعية يتعذر فهمها على من لم يرتض[6] بالعلوم المنطقية فلما بلح فى العلم اخلد إلى التبجح العمل وهو لا يعلم (ص ٤ت) أن الطبيب بما هو عمال مستجير بالطبيعة فى شفاء الأمراض[7] وبما هو علام لا مجيز له فى المسارعة إلى استخراج أوساط المقاييس الا ذكاء فطنته لان الذكاء كما علمنا صاحب المنطق هو المسارعةإلى استخراج الأوساط، فانصرف مفحمًا، ثم بلغنى عنه المسكين تخرص[8] استدللت به على أنه لم يعلم أن أرسطو يقول «اياك والكذب فان الكذاب لا يكذب الا

(١) ت : فيها . (٢) م : بحضانه . (٣) – (٣) ناقص من ت .
(٤) م ت : مسغن. (٥) – (٥) ت : باللقط عن الزق .
(٦) م ت : يرتاض . (٧) ت : المرض . (٨) م ت : تحرصا.

من مهانة نفسه وسخافة رأيه وجهالة منه بعواقب مضرة الكذب عليه فان أول ما ينزل بالكذاب إذا عرّف أن يقول فلا يصدق ثم يصير فى البعد عن البغية بمنزلة من رام الشرق فتوجه نحو الغرب» وقد قال اوميرس «ليس شىء ادنى من الكذب ولا خير فى المرء إذا كان يكذب».

ثم ذهبت استطرف حال اليبرودى لما أورد هذه المسألة كيف لم يعضدها ببيان ولا رمى فى نصرتها بسهام، ونحن نأخذ فى ذكر الرأى الحق وننقضه لا على أنا نعتقده لكن على جهة اختبار العقول الصافية فى حلول الشكوك الغامضة.

الباب الثانى فى حجة من قال أن الفرخ احر من الفروج ونقضها . . . (من ص ١٥١ و م)

والبيان الثالث[١] (ص ١٠ ت) الديك يقبل التأديب بلطف قريحته ويعرف ما مضى من الليل والنهار بجودة فطنته فيصيح عند كون الشمس فى الطالع والغارب والرابع والعاشر وما بينهما ولا[٢] يتأتى للحمام شىء من ذلك[٣] فالديك إذا أحد فطنة وألطف جوهراً وأذكى قريحة وهذه الصفات تكون من أفعال[٤] الحار فالديك (ص ١٥١ ظ م) احر من الحمام، فان قيل إن الحمام الهدى اذكى لسفره وسرعة عوده كان الجواب أن الطبيعة لو منحت الديك خفة الجناح وصغر الجثة لطاح فى البلاد أكثر وعاد أسر ع....

(١) زائد فى ت : يجرى هكذا. (٢) ت : وما . (٣) ت : هذا.
(٤) م : اعتدال ، وعلى الهامش : افعال ، ت : اعتدال .

والبيان التاسع من الآراء المشهورة (ص ١٣ ت) وأجريناه بعد البراهين على عادة القدماء فان ارسطوطاليس[1] لما بين شرف الطبع الخامس بالبراهين الصحيحة بين ذلك أيضًا من الآراء المشهورة بمد الناس ايديهم إلى السماء وجالينوس لما بين[2] أن العقل فى الدماغ بالبراهين الصحيحة ارى أن ذلك مشهور من قول العامة فى الاحمق أنه بلا دماغ: والبيان من الآراء المشهورة يجرى هكذا: نرى الديك معظما فى شريعة الفلاسفة حتى أن سقراط وصى قبل موته أن يذبح عبد فى هيكل افلون ديكا فهو مقرب فى الهياكل للكواكب معظم فى الشرائع معبود عند المانوية وما ذلك الا لفضيلة فيه احوجت[3] الناس إلى عبادته، والفراخ محرمة فى مذهب الفلاسفة الحرنانية أما لأوامر شرعية أو لما فيها من المضرة العائدة على الطبيعة الإنسانية، فهذا مقنع فى نصرة هذه الشبهة.

فلنورد الآن جميع ما مضى على جهة النتيجة بزيادة بيانات فنقول[4] أنه قد بان أن الديك أكثر سفادًا وبيضًا وأكثر فراخًا واعظم غضبًا وأشد غيرة واسخى بالغذاء واقبل ادبًا واعرف بسيران الشمس فى السماء وخصاه مولد للمنى ومرقه مسهل للقولنج البلغمى وبه تختبر السموم والأدوية والموميا[5] فى جبر العظام المكسورة وهو مستغن باللقط عن

(١) ت : ارسطو طالس، ب : ارسطو طاليس . (٢) ت : يبين ، ب : بين .
(٣) ت : اخرجت . (٤) ت : ونقول . (٥) ت : والمومياى .

الزق ويأكل اللحم عن العشب والحب وبفضل حرارته لا يثبت فى مكان ويقنع بالانثى فى الحضان ولو انضاف إليها[١] الذكر لاحترق[٢] الفروج بفضل الحرارة وإذا فقس عن البيضة كان أكثر زغبًا وهو انتن فضلة واشدها صفرة وفى صفرتها ميل إلى الكمودة (ص ١٤ ت) وهو معظم فى شريعة الفلاسفة، وذكر الحمام بضد[٣] هذه الخصال كلها[٤]، وقد بان أن تلك الأسباب أوجبتها له[٥] كثرة الحرارة فله على ذكر الحمام فضل المزية وبان أيضًا بالأصل الثالث أن نسبة الديك إلى ذكر الحمام كنسبة الفروج إلى الفرخ، وإذا بان أن الديك احر من ذكر الحمام فالفروج احر من الفرخ، وهو ما اوردنا فى البيان... (من ص ١٥٢ ظ م) ومن بعد ايرادنا رأى القائلين بأن الفرخ احر من الفروج ونقضه وتكلفنا عن اليبرودى قياسات صادقة فى نصرة ضده وجمعنا ذلك على جهة النتيجة ثم حللنا الشكوك الطارئة والاعتراضات اللازمة واظهرنا الشبه الداخلة على القدماء فى نظائر هذه الأشياء نأخذ فى التنزه فى رياض العقل والاجتناء لثمار العلم ونعتمد كشف اسرار الطبيعة فى البيض ولوازمه باثبات مسائل مشوقة نعددها أولا ثم نجيب عنها بمشيئة الله إذا اظهر الأطباء وجه الشبه فى هذه (ص٢٠ ت) القياسات بطريق صناعية مبلغ ما اثبتناه من المسائل المتعلقة بالحيوان البياض ومن سؤالات

(١) م : اليه .　(٢) ت : لا حرق.　(٣) ت : على اضداد .
(٤) ت : المعددة .　(٥) ت : للديك.



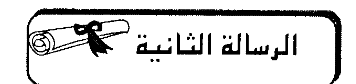
تتعلق بخواص البيض ومن مطالب تختص بحضان المحضن له ومن مباحث فى الفراريج والفراخ الموجودة عنه على ما بين وشرح من أحوال ذلك وهى عن أربعة أشياء إحدى[1] وثمانون مسألة...

(من ص ١٥٣ ظ م : ومن ص ٢٩ ت) قد أوردنا فى مقالتنا هذه ما فيه للمتعلمين فائدة وللمعلمين رياضة ولمن الجأنا إلى تصنيفها تبكيت[2] وهجنة والله ولى المكافأة لمن ادعى أنه معين للطبيعة وهو معين عليها يوم يجلس خالقها لأخذ حقوق المرضى من جهال الأطباء وتعيد الملائكة الكتبة حال كل مريض مشروحة وتشهد القوارير بالغلط وتعرف الأطباء بالذى فرط ويل يومئذ للمدهشمين الذين كانوا عن سلاحهم ساهين وعلى الجهل مقبلين وعن العلم معرضين[3] «يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من اتى الله»[4] بعلم يقين.

تمت المقالة[5] ان الفروج احر من الفرخ تصنيف ابى الحسن المختار ابن الحسن بن عبدون بن سعدون بن بطلان ولله الحمد واهب العقل ومانح الفضل حمدا كما هو له أهل.

(١) م ت : احد .
(٢) م : تنكينا ، ت : تنكيا ، ب : تبكيتا .
(٣) م : مرضين .
(٤) سورة الشعراء (٢٦) ، ٨٨ ، ٨٩ .
(٥) زائد فى ت : فى





مقالة الشيخ ابى الحسن على بن رضوان

فى التنبيه على ما فى كلام المختار بن الحسن بن عبدون البغدادى ابن بطلان من الأغاليط[1]



قال على بن رضوان قرأت مقالة الشيخ اطال الله بقاءه التى انفذها إلى بخطة فأذن لى ان اجيب عنها فعرفته انى مشغول عن هذا فألح على فصرت كارها للجواب فأنه ان كان يغيظه ويغضبه لا يلومنى ويلوم نفسه ان كان الخطأ والغلط من قبله، وان كان من قبلى فيشيعه عنى ويشهره فى الناس. وأنا افتتح الجواب بما عنون به مقالته فانه كتب بخطه «مقاله المختار بن الحسن بن عبدون الطبيب النصرانى البغدادى فى ان الفروج احر من الفرخ» وقد بين جالينوس ان الطبيب فيلسوف كامل وأنه من قصر عن ذلك فهو متطبب والفيلسوف الكامل هو الذى قد حصل له العلم التعليمى والطبيعى والالهى والمنطقى فالطبيب هو الذى حصل كل واحد من هذه على الكمال أى بلغ فيه الكمال وما احسب الشيخ اصلحه الله تعالى له نصيب فى شىء من هذه سوى الدعوى

(١) زائد فى م : التى صنفها فى هذه الرسالة المقدمة فى الفروج والفرخ.

وكلامه فى هذه المقالة يفضحه فيما يدعيه منها والذى سمعته يدعيه المنطق والطب فقط فهب سلمنا له المنطق والطب والعلم الطبيعى زيادة على ذلك فما بلغ بهذه العلوم إلى أن يلقب نفسه بالطبيب وانما يبلغ ذلك إذا سلم له التفنن بالكمال فى سائر علوم القول[1] والعمل كما بين جالينوس فلذلك يظهر أنه قد غلط فى العنوان، وأيضًا فانه معروف غير مجهول فما الحاجة إلى أن ينسب نفسه إلى النصرانية وإلى بلده اتراه ظن أنه مجهول المذهب والبلد فكان يكفيه أن يكتب «مقالة فلان بن فلان المتطبب» ولا يحوج احدا ينتقد عليه كلامه، فقد بان بما ذكرت غلطه فى العنوان ولنأخذ فى نقض كلامه الذى قد زعم فيه لما أمعن فى مقالته أنه قصد به اختبار[2] العقول الصافية وحل الشكوك الغامضة، قال حكى بحضرة جماعة من الرؤساء عن اليبرودى المتطبب أنه عايا أطباء المصريين جميعًا بمسألة ألزم فيها أن يكون الفرخ أبرد من الفروخ لابطاء حركته والفروج أحر من الفرخ لسرعة نهضته، أقول قد رأيت اليبرودى واجتمعت به وكان لى صديقًا إلى أن مات وأنا واحد من المصريين وما سألنى قط عن هذه المسألة هذا مع كثرة ما ذاكرنى به من العلم وهنا أطباء كثير بمصر وبالقاهرة ما لقيهم اليبرودى فضلا عن أن يكون عاياهم فدعوى الحاكى أنه عايا جميعهم كذب، قال وقد كان أخبرنى بذلك شيخ من الأطباء وذكر لى أنه عمل فى ذلك مقالة فقلت

(١) م : القوم .
(٢) م : اعتبار.

ان هذا سؤال مشهور وجوابه مسطور، أقول هذا الكلام يدل على أنه قد سلم ان ما حكاه الحاكى سؤال مشهور وجوابه مسطور ومن سلم ذلك فقد أبان عن نفسه أن لا معرفة له وافصح عن تقصيره وعجزه عن علوم القول[1] وعرف بذلك عنه أنه لا خبرة له بالمنطق وذلك أن السؤال مجموع نقيضين معا ارتبطا بحرف السؤال، فلو عبر هكذا: هل الفرخ ابرد من الفروج أو لا يسلم إليه السؤال فإذا ما كان عبر بذلك فقد ابان عن نفسه انه لم يعلم أنه ليس بسؤال وانه ظن ان ما ليس بسؤال هو سؤال مشهور وجوابه مسطور.....

ولذلك يفسد السؤال اللهم الا أن يراد فيه قياسهما اما إلى بدن الإنسان وأما إلى (ص١٥٤ و م) شيء آخر ثالث ليصح السؤال فإذا قد اسقط من الكلام ذلك فقد سقطت الحكاية سوفسطائية (أى تمويه ودهشة بالباطل) لكنه ظن أنها سؤال مشهور وان جوابه مسطور فانى إلى يومى هذا ما عرفته ولا اظن ان أحداً بلغ به قلة الفهم إلى أن يجيب عن سؤال سوفسطائى بل أن كان ولابد فيصلح السؤال أولاً على هذا المثال أو نحوه: أى الاثنين ابرد بالقياس إلى بدن الإنسان الفرخ أم الفروج، واحسب أنه ان كانت الحكاية عن اليبرودى صحيحة أنه هكذا القاها واضعف الذى اتى بعده غيرها فافسدها وما شعر هو بذلك ومن لم يشعر بذلك كيف يعظم نفسه وينصبها لاختبار[2] العقول الصافية

(١) م : القوم .
(٢) م : الاعتبار.

وحل الشكوك الغامضة اما يستحى من هذا ويعرف مقدار نفسه فيضعها في موضعها ......

(من ص ١٥٤ ظ م) غير أنه اتى بكلام غير كلام الأوائل يوهم من لا يفهم أنه يتكمل بشىء وما قال شيئاً أو عساه فى نفسه يتكلم بما جاء على لسانه مما لا معنى له فى نفسه وهذا هو الأخلق به إذ كان هذا النحو هو نحو كلامه الموجود فى مقالته هذه وفى غيرها مما قد رأيناه له وسمعناه عنه ولذلك سماه أهل العلم بالعراق عطلان ليدلوا بفعلان على أنه فى غاية العدامة ليبالغوا فى وصفه بقلة الفهم والمعرفة ......

فغلط .. غلطات كثيرة منها أنه وضع اليبرودى سائلا[1] والسائل لا يجب عليه أن يعضد سؤاله ببيان ولا يرمى فيه بسهام فقوله ان ذلك واجب بحسب المفهوم من كلامه، ومنها ان اليبرودى ما عايا أطباء مصر والقاهرة ولو كان كذلك لكان القى ذلك على مع كثرة خلطتى به، وكان أيضًا يجعل ذلك عامًا ولم فعل ذلك فذلك كذب، ومنها قوله مسألة مشهورة وما هى مسألة بل دهشمة وتمويه، وما كان هكذا كيف يكون مشهورًا، ومنها قوله أنه أورد فيها ما قاله الأطباء وما قال طبيب قط فيها قولاً وكيف يقول من يعقل ويفهم جوابًا أو غيره فيما هو دهشمة وتمويه بل ان كان ولابد فالأطباء يقولون بحسب ما توجبه صناعة الطب ان هذا يسخن البدن أكثر من هذا، ومنها قوله قد كان

(١) م : سايل.

يتسع لليبرودى أن يبين ان الفروج احر وارطب من الفرخ بعدة بيانات وقد وضع اليبرودى سائلاً لا مجيبا فكيف يصير السائل مجيبًا فى حال واحدة، ولعل اليبرودى القى هذا وهو يعتقد نقيضه ليمتحن به من القاه عليه هل له معرفة أم لا ....

(من ص ١٥٥ و م) فأنا أعجب منه كيف لا يشعر بنفسه واشبهه برجل كان فقيها فترك الفقه وادعى الشعر فكان نهاره وليله يهذى بكلام يظن أنه شعر(١) وما له وزن من أوزان الشعر ولا فيه معنى من معانى الشعر ولكن الناس فطنوا أنه قد خولط ووسوس. وما فطن لهذا الرجل الذى هذا كلامه إلى الآن احد أنه مفسود الذهن سوای ومن سماه بالعراق عطلان فقط والسبب فى ذلك إهمال الناس علوم الأوائل، الم يشاهدوه فى الطب وهو لا يعرف سوى صفة واحدة يعالج بها الشيخ والشاب والمدنى والقروى والمرض الحار والبارد وبالقول المطلق كل مرض؛ أما فى هذا كفاية أن هذا الرجل لا معرفة له ولا فهم له وان كلامه كله هذيان يهذر به فقط...

وانى اقسم بالله انى عالم كلامى لا يبلغه ذهنه ولا كثيراً من الناس ولكن على حال إذ كنت شرعت فى شيء فلابد من تمامه....

(من ص ١٥٧ ظ م) أقول انتهى امره فى هذا البيان الثالث إلى الدعوى الكاذبة على الوجود وذلك أن أقل الحيوان قبولاً للتأديب نوع

(١) م : شعرا .

الدجاج ويدل على ذلك الوجود بانه لو أخذ إنسان ديكا ورباه فى حجره من صغره إلى كبره ثم أطلقه لم يعد إليه وهرب منه والدجاج لا يعرف الدار البتة وذلك أنه إذا طار منها أو صار على جدارها لم يعد إليها ولم يقدر على عودته إلا بالحيلة والذى غلط الرجل أنه رأى ديكا قد اخذه بعض الخداعين وجعل فى أذنيه زئبقا أو غيره من حيث لا يشعر به فبقى الديك يدور ويقع ويقوم ويوهم ذلك الخداع أنه يرقص فلغلط طبع هذا الرجل ظن ان هذا الديك قد تعلم وقبل التأديب فاطلق القضية على كل ديك وهذا كذب ولو كان هذا الديك قد قبل التأديب فكيف وما قبله، وقوله ان الديك يعرف ساعات النهار والليل كذب وأرسطو قد اعطى العلة فى صياحه آخر الليل فى كتابه فى المسائل الطبيعية ونحن أيضًا نجد الحمام يهدر فى الاسحار وعند طلوع الشمس هديراً أكثر من صياح الديك وما نجد الديك يصيح خاصة فى الأوقات الأربعة بل صياحه سحرا أكثر قبل الطالع مثل أكثر الطيور.....

(من ص ١٥٨ و م) والعلة فى أنه لم تجعل الطبيعة الديك يناوب الدجاجة فى الحضان قلة لبث الدجاجة إذا قامت عن البيض لطلب الغذاء وجعلت الحمام يناوب انثاه لطول لبث انثى الحمام فى طلب الغذاء.....

(من ص ١٥٨ ظ م) فما في الأرض احمق منه ولا أقل فهما[1] لان من كان مواليا للقدماء أو طبيبًا[2] على ما ذكر من امر نفسه لا يكون محدودًا على حمقه هذا فيستدل بالآراء المشهورة لأنها لا يقوم منها بوجه ولا بسبب برهان.....

وما في ذبيحة الديك حجة على أنه معظم كما ليس الكبش معظمًا[3] في شريعتنا التى امرتنا بتقريبه بل إنما المعظم بقول سقراط فى ذلك ان كانت الحكاية على ظاهرها صحيحة افلون[4] فاما ان كانت على غير ذلك وهو الحق فقد بطلت حجته من كل وجه، وقوله معظم في الشرائع ليت شعرى أى الشرائع الذى الديك معظم فيها، وقوله معبود عند المانوية كذب فان القوم لا يعبدون الديك لكن يحرمون ذبحة تحريمًا مؤكدًا فقط بحسب ما تأدى إلينا من أخبارهم، وقوله وماذاك الا لفضيلة فيه احوجت الناس إلى عبادته هذيان مضحك جدًا فأى فضيلة في الديك ومن هم الناس التى احوجتهم هذه الفضيلة إلى عبادته فأنا إلى يومنا هذا ما سمعنا أن ناسا احوجتهم فضيلة الديك إلى عبادته، وقوله والفراخ محرمة إلى آخره ما فيه فائدة ومدار هذه الحماقات كلها إذا سلمت فإنما هى أن الديك معظم والفرخ محرم وما فيها شيء آخر وهو يظن ان ذلك برهان على ان الفروج احر من الفرخ وما فى الدنيا حماقة اعجب من هذه ......

---

(١) م : فهم.
(٢) م : طبيب .
(٣) م : معظم .
(٤) ناقص من م .

قال وحضاه مولد للمنى ومرقه مسهل للقولنج البلغمى اقول ان كان هذا يوجب فضيلة الديك على الحمام ففى ريش الحمام ما يزيل الطرفة وفيه من المنافع أكثر مما فى الديك فتنقلب المسألة وتنعكس فيصير الحمام أفضل من الديك...

اقول أنا احدثك فى هذا بحديث يضحك: اتفق عندى شخص فاضل رأى هذه المقالة فوجد قوله معظم فى الشرائع فقال اظنه يريد به ذلك العرش الذى إذا صرخ صرخت الديكة كلها وضحكنا منه جميعاً.....

(من ص ١٥٩ و م) واقسم بالله انى لصادق فى هذا الحديث وهو ان شيخا وغيره اتفق حضورهم عندى فاخذ بعض أصحابى مقالة هذا الرجل وقرأها فى ذلك الموضع فلما سمعه ذلك الشيخ والجماعة وكان شيخًا له معرفة بحضن بيض الدجاج والحمام وخبرة به قد زاوله سنين[١] كثيرة فقال وقالوا كلهم ورفعوا اصواتهم كذب والله من قال هذا القول وضحكنا كلنا من ذلك ضحكا كثيراً. ولما فرغ من هذا اخذ يهذى ويهذر فى أشياء اخر وهى مقايسة الكبش والتيس والجاموس والبقرة وغير ذلك يرون ان يورد فيها مثل ما أورده فى الفرخ والفروج ويكفى من ذكر حمقه ،هذيانه ما يتهيأ عليه.

(١) م : سنينا .

تمت مقالة الشيخ ابى الحسن على بن رضوان فى التنبيه على ما فى كلام مختار ابن الحسن من الهذيان والدهشمة والأباطيل التى هى شىء من السفسطة وشىء على ما لاح لى من وهمه[1] وظنونه الغير صحيحة والله اعلم بالصواب.

(١) م : فهمه .

الرسالة الرابعة

(من ص ١٦٥ ظ م) بسم الله الرحمن الرحيم

مقالة الشيخ ابى الحسن على بن رضوان

فى ان ما علمه يقين وحكمة وما ظنه مختار بن الحسن البغدادى غلط وسفسطة

قال على بن رضوان وصلت إلى من الشيخ الكراسة الأولى من مقالته التى عملها فى وكتبها إلى فاستقبحت فعله وتعجبت كيف استجاز ان يكتب فى كتابا لم[1] ينفذه إلى فاذاعه فى الناس وأشهره قبل انفاذه فترك العدل والانصاف، فان كان فعل ذلك نظيراً لما فعلته انا فيه فبين فعلى وفعله فرق بين واضح وهو انى ما عملت مقالتى فيه ولا كتبتها إليه بل كتبتها للناس كيما امحو بها ما اذاعه عنى فيهم، فلذلك حسن منى اذاعتها وقبح منه ذلك، وبعد اذاعته واشهاره ما عمله انفذ إلى منه كراسة واحدة فوجدته فيها مستعملاً للخدع راكبا للشبه.....

وأنا ارفع قدره عن ان أتكلم بما لا صحة له وأنسب ذلك منه إلى النسيان الموكل بالإنسان واذكره بما سلف من الجفاء والعربدة وابين عذرى فى الوفاء والنصفة....

---

(١) ناقص من م .

فاحوجنى ان عملت مقالة اوضحت فيها هذا المعنى اختصارا[1] من القول ولو شئت واوردت[2] فيها ما قاله الفيلسوف[3] والإسكندر وغيرهما لأطلت بل اقتصرت على ما يمحو عنى ذلك فقط ثم أنه أخذ يغلطنى فيما اصبت فيه ويذيع ذلك عنى عند القضاة وكل من لقيه وجاءتنى به الأخبار من كل وجه فانفذت إليه رقعة أعاتبه فيها على ذلك واسأله السكوت عما لا يحسن بمثله ولا بمثلى فابى واستكبر وقال واستظهر فاحوجنى ان عملت مقالة أوردت فيها ما بينه الفيلسوف[4] من أمر طبائع الناس أن منهم الفاضل الطبع ومنهم السديد ومنهم العطب وذكرت فيها نحوا من فراسة الطباع وتمثلت به وتحديته بما ذكر من الألف مسألة بمسألة فظن أن ما تحديته به مباهلة ولم يفرق بين التحدى والمباهلة وعندى خطه قبل انفاذى ما سألته عنه يوعز فيه أن اجاريه المسائل فى العلم فسألته ظنا منى به أنه من أهل العلم عن شكوك فى نفسى لا سمع ما عنده فيها ولما فعلت ذلك حلت العربدة التى سلفها ولم ار للمسائل جوابا منذ ستة أشهر أو سبعة إلى وقتى هذا فكان ما سلف من العربدة اجازة عن الجواب لأسباب هو عارف بها ان شاء الله فإذا كان ذلك فالسابق اظلم والمنتصر اسلم ولمن انتصر بعد ظلمة فأولئك ما عليهم من سبيل....

(١) م : اختصار.
(٢) م : اوردت .
(٣) يعنس ارسطو طاليس.
(٤) يعنى ارسطو طاليس.

وقد لزمت فى انتصارى العلم والحكمة فاوردت فيه منافع وفوائد كثيرة من الفلسفة النظرية والعملية ولم ار له مثل ذلك ولا قريبًا[1] منه فيما تضمنته الكراسة بل رأيت كلامًا له رونق وطلاوة ظاهرة وباطنه خلاف ظاهره كما باطن الدرهم الزائف والدينار المعمول من نحاس المطلى بالذهب عليه من السم الناقع.....

(من ص ١٦٦ و م) ولذلك ليس لمرض نفسه دواء ولا علاج يرجى به برؤه منه واحسب أنه لما وقف على[2] ذلك منه أفاضل أهل العلم ببغداد لقبوه بعطلان ليدلوا بهذا الاسم على المبالغة فى عدمه سبيل الهدى ولا يظن أنى خالفت ما شرطت من طهارة القلب فانى أنا لم أسمه بذلك بل صاعد بن بشر طبيب بغداد وعبدالله بن الطيب الذى ينتمى إليه وغيرهما من أفاضل أهل بغداد وهم الذين تواطأوا على تسميته.....

(من ص ١٦٧ و م) قوله «فان كنا قد وقفنا على أن الحق غيره»، وما فى السموم القاتلة أعظم من هذا وقد قال فرفوريوس ان قبولنا الآراء الرديئة اعظم وأشد من قتلنا آباءنا، وإذا كان يروم فى هذا الفصل أن يسمنا بأشد سم واقتله فحق لنا ولكل من سمع كلامه أن نبغضه ونشنأه ونتجنب طريقته ونتوقاها كما يتوقى أوحى الحيات والافاعى قتلا بسمومها....

(١) م : قريب.
(٢) م : وصف .

(من ص ١٦٧ ظ م) وبالقول المطلق فان جالينوس عرف اجتهاده وحرصه على التماس الحق كما عرف للفيلسوف[١] ذلك ولم يترك واحد منهما الحق لقول بعض المشهورين وهذه سبيل أهل العلم وهذا الرجل يأمرنا بخلاف ذلك اعنى أن نترك الحق لقول بعض المشهورين. قال «وابوالخير بن الخمار وابو على بن زرعة ماتا بحسرة مقالة يحيى ابن عدى فى المخرسات المبطلة لكتاب القياس» اقول أما أبوالخير وأبو على فلست احقق هل ماتا بحسرة ذلك أم لا، وأما المخرسات التى اوردها يحيى بن عدى فى مقالة وقرن بها سبع مقالات أخر عضدها بها فقد وقعت لى بخط ابن عدى نفسه وقرأتها ووقفت عليها وعلى مواضع التغليط فيها ومحوتها فى كتابى فى التوسط بين الفيلسوف وخصومه فى المنطق. وأما قول هذا الرجل أنها مبطلة لكتاب القياس فكذب لانها إنما تتعلق بالمقاييس ذوات الجهات فقط وهذا جزء من كتاب القياس لا كله. قال «وشيخنا أبوالفرج بقى عشرين سنة فى تفسير ما بعد الطبيعة ومرض من الفكر فيه مرضة كاديلفظ[٢] نفسه فيها.....» اقول أما اجتهاد القوم فى التماس الحق والمواظبة عليه فأمر غير مشكوك فيه ولذلك فازوا بهذه السعادة فان كان قد من الله عز وجل علينا نحن أيضاً بطباع مؤاتية وحرص واجتهاد فما المانع لنا ليت شعرى أن نخرج عقولنا مما بالقوة إلى ما بالفعل ونلحق بهم فى الفهم والمعرفة والسعادة

(١) يعنى أرسطو طاليس، وفى م : الفيلسوف .
(٢) م : تلف .

ولكن هذا الرجل لما شعر من نفسه بغير مؤاتاة طبعه وآثر الراحة والكسل أظنه شعر أن ما فيه بالقوة أكثر مما فيه بالفعل وظن غيره كذلك فيلزمه بحسب ما اشترط أن يضحك منه الحق ويخسر صنعته وتفوته السعادة وقد تبين من كلامه أنه كذلك.....

(من ص ١٦٨ و م) أما قدرى فظاهر من كلامى أنى أفهم كلام من سلف من أهل العلم وأما قدره فظاهر من كلامه أنه لا يفهم ولا يفهم أنه لا يفهم والسلام.....

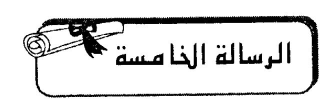
فناقض أرسطو أفلاطن وسائر من وقع له غلطه فى الأشياء التى نظر فيها وسارع جالينوس إلى ذلك حتى أنه صرح بما ظنه من اغلوطات أرسطو وناقض سائر من تقدمه من الأطباء والفلاسفة وسارع ثامسطيوس فى إثبات اغلوطات صاحبه حتى أنه لا يتحاشى أن يقول «والذى غلط الفيلسوف فى كذا هو كذا وأنى لا عجب بمن هو فى غاية الذكاء والفطنة كيف غلط فيما هذاقدره على قوته» وفرفريوس فى المدخل(١) وإيليانس(٢) فى الفصل الخامس من كتاب العبارة ويحيى النحوى فى تفاسيره لكتب(٣) الفيلسوف مثل مناقضته اياه فى المكان، واعجب من هذا أن يحيى النحوى وضع كتابًا سماه الشكوك يوضح فيه(٤) ما(٤) يزعمه اغلوطات جالينوس، وما احد من الفضلاء اطرح ذلك بل أرسطو

(١) م : المحره .
(٢) م : واللسس .
(٣) م : كسب .
(٤) – (٤) م : فيها.

أوجب شكر هؤلاء ومن جرى مجراهم إذ كان ما نقلوه من ذلك سببًا لإدراك الحق وتخليص النفوس من الآراء الرديئة التى محلها من العقل أشد وأعظم من قتل الآباء كما قال فرفريوس فكذب هذا الرجل فيما قاله ظاهر ومع ظهوره قد وجب على كل من يؤثر الحق أن يبغضه من قبل أنه قدم محبتنا للقدماء على محبتنا للحق وقد قال ارسطو ما هذا معناه دون لفظه «الحق وأفلاطن لنا صديقان ونحن نقدم صداقة الحق على صداقة افلاطن» .....

(من ص ١٦٨ ظ م) وأنت فيما عظمت به نفسك قد خالفت صناعة الطب بجميع هذه الأنحاء ومن خالف صناعة الطب بجميع هذه الأنحاء فبينه وبين الطب ما بين النجوم والثرى وعند ذلك يطرحون كلامك ويقبلون على الضحك منك والسلام.

تمت المقالة فى إظهار ما فعله مختار من السفسطة والغلط والدهشة والتمويه.



الرسالة الخامسة

(ص ١٣٦ و ل) رسالة[١] الشيخ ابى الحسن على بن رضوان إلى أطباء مصر والقاهرة المعزية حرسها الله تعالى يشكو فيها حاله وما جرى بينه وبين العلامة المختار بن حسن البغدادى الطبيب[١]

(ص ١٣٦ ظ ل ، ومن ص١٦٨ ظ م) بسم الله الرحمن الرحيم[٢]

قال الشيخ[٣] الإمام العلامة أبوالحسن على بن رضوان[٣] أما بعد يا أخوانى وأحبائى أطباء مصر والقاهرة اطال الله بقاءكم فانى اتحفكم[٤] بظرائف تتعجبوا منها وهى ما يأخذ به[٥] المختار بن حسن البغدادى فى نفسه فانه عمل مقالة تحداكم بها وزعم[٦] أنه يعاييكم بثمانين برهانًا فى الفرخ والفروخ وأنه[٧] ليس فيكم أحد يحل منها شيئًا ولا يفكه، وكذلك أرسلها إلى فوجدته قد كتب بخطه عليها «مقالة المختار بن حسن الطبيب البغدادى» . وانتم تعلمون أن جالينوس الفاضل أوضح فى كتاب مفرد له[٨] أن الطبيب هو من تكاملت فيه الفضائل كلها التى

---

(١) – (١) ناقص من م .

(٢) زائد فى ل : وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلم رب يسر يا كريم، وزائد فى م : هذه رسالة أخرى لعلى بن رضوان وضعها لأطباء مصر والقاهرة يخبرهم بأحوال مختار بن حسن البغدادى.

(٣) – (٣) ناقص من م .

(٤) م : اطرفكم .

(٥) ل م : بها .

(٦) زائد فى ل : فيها .

(٧) م : فانه .

(٨) ناقص من م .

هی العلم التعليمی والطبيعی والإلهی وصناعة المنطق والطب وصالح الأعمال ومحاسن الأخلاق، وأنه من كان كاملاً فی الطب وناقصًا من[(1)] واحد[(1)] منها فهو بعد متطبب لا طبيب ومن لم يتكامل فيه صناعة الطب فهو متعلم لم يبلغ بعد إلى أن يسمى بالمتطبب. ولهذا كان من سلف من شيوخنا يتسمون بالمتطبب وأن لم يستحق هذه الرتبة. وإذا كان هذا هكذا فمن سمی نفسه الطبيب وما تكاملت فيه صناعة الطب[(2)] فهو كذاب أحمق. ولما قرأت مقالة هذا الرجل فی الفرخ والفروج لم اجده اتفق له فيها صواب كلمة واحدة فكتبت إليه انبهه على ذلك بأن عرفته أن جميع ما فيها شبيه بالشعبذة وكما يقول أصحاب الخرافات «يا[(3)] شمعون خذ بالعيون» فطن[(4)] لما عرفته بذلك أنه[(5)] اتی فيها بظرائف استحسنها. فعملت مقالة بينت فيها أن كل ما فی مقالته هذيان وهذر وأنه يتكلم بما جاء على لسانه مما لا صورة له فی نفسه بمنزلة من خولط ووسوس. ثم انفذ إلى كراسة بخطه من مقالة أخرى عملها فی فقرأتها فوجدته أيضًا فيها[(6)] ما عرض له أن يجیء (ص ١٣٧ و ل) بكلمة واحدة صواب[(7)] كما قد يعرض لغيره أن يغلط بالخطأ. فاجبته عن شیء شیء منها وإنی لمنتظر إلى وقتی هذا بقية مقالته فی[(8)] مجتهدًا[(8)] فی التماس ذلك لأتم جوابه وأرسله إليه

---

(١) - (١) م : واحدا .
(٢) ناقص من م .
(٣) ناقص من م .
(٤) زائد فی ل : انی .
(٥) ناقص من ل
(٦) ناقص من ل .
(٧) ل : صوابا .
(٨) - (٨) ل : ومجتهد .

وأوقفكم عليه. فلما توقف عن انفاذ[1] بقية[1] مقالته رأيت المبادرة بتعريفكم مبلغ قوته في الطب بأن ابث[2] لكم من كلامه ولفظه[3] فى مقالتيه ما تضحكون[4] منه وتحمدون[5] الله عز وجل على ما رزقكم وانعم به عليكم من العقل والفهم والمعرفة.

قال فى مقالته التي تحداكم بهذا وعاياكم فى أول براهينه «لا تخلو هذه[6] الرطولة الزائدة[7] أما أن تكون حارة أو باردة لأنه قبيح أن توجد خالية من كيفية». وهذا كلام مضحك لأن الرطوبة كيفية فتكون تقدير كلامه إنه[8] قبيح أن توجد كيفية[9] خالية من كيفية أو يكون ظن[10] أن الرطوبة ليست بكيفية فلذلك ليست تخلو من كيفية وهذا[11] لاشك فى[12] أن هذا كلام[12] مختلط يهذى بما جاء على لسانه. ومع هذا فقد ابان عن نفسه أنه لا يعرف المزاج الرطب إذ[13] كان هذا المزاج الغالب فيه الرطوبة فقط، ومن زعم أنه لا يمكن أن توجد الرطوبة إلا ومعها حرارة أو برودة فما يعرف ولا يفهم الحال فى الكيفيات الأول ولا فى المزاج الكائن عنها. وجهل أيضًا المحسوس إذ كنا كثيرًا ما نجد الماء معتدلاً بين الحرارة والبرودة والموجود فيه من الكيفيات الأربع فى هذه الحالة الرطوبة فقط، وكذلك[14] كثيرًا ما نجد الهواء كذلك،

---

(١) - (١) م : انفاذه فى .
(٢) م : انبت .
(٣) م : بلفظه .
(٤) ل م : تضحكوا.
(٥) ل م : وتحمدوا.
(٦) ناقص من م ..
(٧) ناقص من م .
(٨) ل : لانه .
(٩) ل : الكيفية .
(١٠) م : يظن .
(١١) زائد في م : كلام.
(١٢) - (١٢) ناقص من م .
(١٣) ل : إلا إذا .
(١٤) زائد فى م : أيضا .

وما[1] كان ظهوره هذا الظهور فكيف يخفى امره (ص ١٦٩ و م) عمن يسمى نفسه الطبيب حتى يزعم أن الرطوبة لا يمكن أن[2] تكون[2] على ما سبق فى برهانه إلا ومعها حرارة زائدة أو برودة زائدة. وعلى هذا المنهاج اجرى كلامه فى باقى براهينه التى ظن أنها براهين، وقد كشفت أمره فى كل شيء منها[3] وبينت أن بينه وبين كل فضيلة من فضائل العلم والمعارف مثل[4] ما بين الثرى والسماء. ويكفى أن ابث[5] لكم من كلامه فى مقالته التى عملها فى ما هذا حكاية لفظه على هيئته (ص ١٣٧ ظ ل) قال «الحمى المركبة من صفراء وبلغم : متى قصد الطبيب تلطيف البلغم بالأشياء الحارة زاد فى مادة الصفراء، ومتى قصد تبريد الصفراء وترطيبها بالأشياء الباردة زاد فى مادة البلغم». وأنتم تعلمون[6] أن هذا كلام من لم يعرف شيئًا من أمر الحميات إذ كان ابقراط وجالينوس وسائر الأطباء كافة قد بينوا أن الحمى سوء مزاج حار يابس، وما كان منها مجانبا للغب أو شطر الغب فهى حمى مركبة من حميين[7] احداهما الحمى الكائنة عن عفن الصفراء والأخرى الكائنة عن عفن البلغم. فمن خالف ذلك وزعم أن حمى[8] مركبة من صفراء وبلغم فما بينه وبين الطب عمل، سيما وقد غلط فى علاجها أيضًا، وذلك أن الطبيب فى علاج هذه الحمى المركبة يحتاج أن ينظر لا محالة

(١) ل : ومن.
(٢) - (٢) ل : زيادتها.
(٣) ل م : فيها.
(٤) ناقص من م.
(٥) م : ابث.
(٦) م : تعرفون.
(٧) ل م : حماتين.
(٨) ل : الحمى.

فى ثلاثة أشياء: احدها أن كان معها أعراض مخوفة مثل الصداع المبرح والغشى أو افراط قىء أو ذرب بادر بتكسين[١] ذلك، والثانى أن كان فى[٢] البدن[٢] كثرة من الخلطين نقصها[٣] وأنضج ما لم ينضج منها وقطع وجلا ما كان لزجا منها فلطف غليظه وفتح السدد التى هى سبب احتقان الخلط حتى عفن، والثالث يكون[٤] قصده تبريد الحمى وترطيبها إذ كانت فى نفسها سوء مزاج حار يابس، فعلى هذا النحو يكون علاج هذه الحمى؛ واما[٥] الذى ذكره هذا الرجل فبعيد جداً عن طرق الصناعة. وفيه أيضا غلط آخر وهو قوله «تلطيف البلغم بالأشياء الحارة» إذ قد يمكن تلطيفه بالأشياء الباردة كالسكنجبين. وغلط ثالث بقوله[٦] «وتبريد الصفراء وترطيبها» والصفراء فى هذه[٧] الحالة[٧] إنما يحتاج أن تنقص عن البدن وتنضج وكثيراً ما يكون ذلك بأدوية فيها اسخان مثل الافسنتين والمحمودة على رأى من زعم أن المحمودة حارة يابسة. وما فى كلام هذا الرجل أنه فهم شيئًا من ذلك بل كلامه ظاهر فيه أن[٨] بينه وبين الطب من البعد مثل[٩] ما بين مركز العالم (ص ١٣٨ و ل) والمحيط، وعلى هذا المثال والمنهاج كلامه فى شىء[١٠] شىء مما اثبته فى مقالتيه اللتين قدمت ذكرهما كما قد[١١] اوضحنا

---

(١) ل : لتسكين .
(٢) – (٢) م : بالبدن.
(٣) فى م على الهامش : أى الكثره .
(٤) ناقص من م .
(٥) م : فاما .
(٦) ل : أيضا وهو قوله .
(٧) – (٧) م : هذا الحال .
(٨) م : انه .
(٩) ناقص من م .
(١٠) ل : كل .
(١١) ناقص من م .

ذلك في التنبيه على هذره وهذيانه في كل شيء منهما. ويكفي ان احضركم[١] من كلامه ما افتخر به وألحق به نفسه بارسطوطاليس[٢] وجالينوس وغيرهما من أفاضل الأطباء والفلاسفة مثل افلاطن وابقراط[٣]، فأنه أورد حكايات عن واحد[٤] واحد من هؤلاء حرف[٥] كثيراً منها وما اخلى منها حكاية من كذب زاده فيها أو نقص[٦] حقاً[٧] منها حتى افسدها بسوء تصوره[٨] وفساد ظنه كما قد بينا ذلك عنه في جوابنا. ولما فرغ منها اضاف نفسه إليهم فقال بهذا اللفظ مفتخراً بحذقه في الطب وكماله في المعرفة: «ولا يرتاب في احد[٩] على صغر شأني بقياس هذه الطائفة المعددة إذا أنا وصفت بمصر[١٠] التدبير المبرد» إلى[١١] إن قال[١١] «ولا وصفت بزوراً ولا لعاباً الا لمن اشرف على تقريح الصدر والرئة من ماء الفجل ومطبوخ الزوفا» . فهذا كلامه بلفظه لما افتخر واجمع رأيه، وانتم إذا سمعتم هذا الكلام لم ترتابوا بقائله بل تتحققوا أنه لا معرفة له بالطب لا بعلمه ولا بعمله لأنه[١٢] قد[١٢] اعترف أنه ينقل التدبير دفعة واحدة من الضد إلى الضد وقد رأيتموه يفعل ذلك دائمًا ولا يعرف من الأضداد إلى الضد المبرد فقط[١٣]

(١) ل : اخصكم . (٢) م : بارسطو . (٣) م : بقراط.
(٤) ل : كل . (٥) ل : و حرف . (٦) م : نقصه .
(٧) ناقص من م . (٨) م : تصور . (٩) ناقص من ل .
(١٠) ناقص من م . (١١) - (١١) اما نسخة م فأورد فيها قوله كله.
(١٢) - (١٢) ل : بل . (١٣) ناقص من م .

مثل[١] ماء[١] الشعير الكثير وبرز[٢] الرجلة[٢] الكثير وشراب الرمان الحامض وما جرى مجراه يعالج به المحموم والمفلوج والصبى والشيخ والمرأة والرجل وبالجملة كل علة باردة أو حارة يابسة أو رطبة؛ وهذا نقيض ما عليه أهل[٣] صناعة الطب إذ كل علة فلها علاج خاص؛ ومن نقل التدبير[٤] أيضًا[٤] دفعة واحدة فقد فعل نقيض ما علمه ابقراط وجالينوس. أما ابقراط فأوضح أن الطبائع لا تحتمل النقلة دفعة من الضد إلى الضد؛ وهذا أمر تعرفه العوام فضلاً عن الحكماء فلا يهجموا بمن برد بدنه الثلج على النار ولا بالقرب منها حتى يدرجوه، ولا[٥] بمن اسخنته شمس (ص ١٣٨ ظ ل) الصيف على البرد دفعة حتى يدرجوه[٦]، ومن يأتى منهم من تعب وقد[٧] عرق[٧] لا يتكشف للهواء دفعة واحدة حتى يتدرج ويسكن، ومن يقوم من دثار لا يتعرض للهواء البارد دفعة حتى يتدرج، ولا يقلعون عن دوابهم السرج[٨] حتى تسكن ويدرجونها[٩]؛ وقد قال ابقراط فى الثانية من ابيذيميا: الاستلقاء فى موضع بارد والإنسان متدثر[١٠] حتى يستنشق هواء باردًا ويسخن بدنه بالدثار وجه من أفضل وجوه التدريج؛ وفسر جالينوس ذلك فقال[١١]:

---

(١) – (١) م : كما .
(٢) – (٢) م : والبزر رجله .
(٣) ناقص من م .
(٤) – (٤) م : أيضًا التدبير.
(٥) – (٥) ناقص من م .
(٦) – (٦) م : وعرق .
(٧) ناقص من م .
(٨) م : ويدرجوها .
(١٠) م : مدثر .
(١١) م : وقال .

أنه ينبغى آن تكون النقلة من الاضداد على تدريج فمن كان فى حر مفرط نقل إلى[(١)] البرد[(١)] على تدريج بان يجعل نفسه[(٢)] فى هواء بارد وبدنه مغطى بدثار؛ واوضح جالينوس فى كتاب[(٣)] حيلة البرء أنه[(٤)] لا ينبغى الانتقال دفعة فى العلاج والمداواة من الضد إلى الضد إلا[(٥)] بتدريج[(٥)] ، وعرف ذلك بما ذكره من علاجه لاذن الرجل الوارمة التى تولى علاجها[(٦)] قبله صاحب ثاسلس فأرخاها، فلما تولى جالينوس علاجها جعل نقلته إلى التدبير الصواب على تدريج. وما اشبه أنا ما ذكره هذا الرجل من علاجه الذى امتحن به إلا بمن وجد نورة فيها نار كامنة فصب عليها الماء البارد فهيج ما كان كامنا فيها من الحرارة. فان كان ما قاله حقا فإنما هيج ما فى الكبد والقلب والدماغ من الحرارة فقتل العليل من ساعته. واعجب من هذا ان ما افتخر به كذب لان من احترق كبده والتهب قلبه وتشيط دماغه فالموت يعاجله قبل اشفائه بالدواء وإن كان قال هذا على طريق المبالغة . فأنتم تعلمون أنه لا يجوز علاج من هذه[(٧)] حاله إذ قد بلغ إلى حد لا يوجد له دواء ولا علاج، ومن عالجه منا فإنما يعالجه لضرورة تدعوه إلى ذلك مثل أمر سلطان لا

(١) - (١) م : للبرد .
(٢) م : بنفسه .
(٣) م : كتابه .
(٤) م : بان .
(٥) - (٥) ناقص من م .
(٦) م : علاجه.
(٧) ل : هذا .

يمكن رده وما جرى (ص ١٦٩ ظ م) هذا المجرى . فهذا فيه كفاية فى أن تعـجـبـوا من أمـر[١] هذا الرجل وتضـحكوا منه (ص ١٣٩ و ل) وتتركوا مكالمته فيما تستأنفوه[٢] منه[٣] ولا تلتفتوا إلى شىء يقوله[٤] بل تنزلوه[٥] بمنزلة إنسان قد خولط ووسوس فهو ابدا يهذر ويهذى فلا[٣] يستحق[٦] ان يرثى له ولا[٧] يرحم[٧] قط[٨] ، وفى[٨] هذا كفاية[٩].

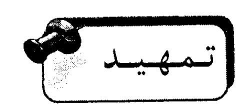
(١) ناقص من م .
(٢) آخر الكلمة ناقص من م .
(٣) ناقص من م .
(٤) م : من اقواله.
(٥) م : تتركوه .
(٦) - (٦) م : ويستحق.
(٧) - (٧) م : ويرحم.
(٨) م : فقط .
(٩) - (٩) ناقص من م ، وزائد فى ل : والله اعلم بالصـواب واليـه المرجع والمآب تمت الرسالة والله الموفق والحمد لله الخ، وزائد فى م : «ت رسالة على بن رضوان إلى أخوانه أطباء مصر رحم الله منهم المسلمين ... إلخ».



الباب الثالث من مقالة

«فى التطرق بالطب إلى السعادة»*

(*) حقق هذه المقالة لعلى بن رضوان ونشرها: سليمان قطاية فى مجلة تاريخ العلوم العربية التى يصدرها معهد التراث العلمى العربى بجامعة حلب وسوريا ، المجلد الثانى - العدد الثانى - تشرين الثانى ١٩٧٨م .



هذه المقالة تعد من المقالات الهامة لعلى بن رضوان نظراً لأنها تؤكد انتماؤه للتقليد الطبى المنطقى وتلقى الضوء على مفهومه للتعليم الطبى، فهذا التعليم ينبغى أن يكون على يد معلم فاضل من القادرين على شرح وتفسير كتب الأطباء الأوائل وخاصة أبقراط وجالينوس، وإذا لم يتمكن المتكلم من الحصول على هذا المعلم فليس أمامه إلا أن يتعلم بنفسه من خلال الاطلاع على كتب الأطباء الأوائل وخاصة أبقراط وجالينوس، وإذا لم يتمكن المتكلم من ذلك الحصول على هذا المعلم فليس أمامه إلا أن يتعلم بنفسه من خلال الاطلاع على كتب هؤلاء الأطباء المشاهير وان كان ذلك سيأخذ من الوقت والجهد الكثير.

وإذا كان ذلك أساس تعلم المهنة فى شقها النظرى، فإن الشق العملى من الطب والتدرب على طرق العلاج يحتاج فى نظره إلى «معاينة هذه الأعمال بين يدى أفضل من تعلم عليه من أهلها».

ولعل ذلك هو ما جعل على بن رضوان يخصص البابين الأول والثانى من هذه المقالة التى بين أيدينا للحديث عن أبقراط، فتحدث فى الأول عن كتب أبقراط وفى الثانى عرف بأبقراط وفضله فى علم الطب وروى جانبا من قصص شهرته ومواطن مهارته، ولم ينس بالطبع أن يذكر فضل من سبقوه ومن عاصروه ومن أتوا بعده من أطباء اليونان وخاصة جالنوس.

وبعد هذه الخلفية التاريخية فى تاريخ علم الطب اليونانى وخاصة تاريخ مشاهيره ابقراط وجالينوس، يقدم ابن رضوان رؤيته فى كيفية التطرق بالطب إلى السعادة وفى هذا يؤكد على عدة مبادئ منها :

١ - أن الطب أهم المهن وأكثرها خيرية، وأن الطبيب الجيد يباهى الملائكة بعمله . وهو فى هذا إنما يستند كعادته على أقوال لجالينوس وأبقراط.

٢ - أن الأجر الذى يحصله الطبيب مهما بلغ فلا يفى جزاء الخير الذى يفعله الطبيب للمريض، فهو ينجيه من الموت ولا شىء يعادل هذا الفضل.

٣- أن السعادة الحقيقية للطبيب هى سعادة النجاح فى عمله، وهذا لا يتأتى للطبيب إلا بالمداومة على العلم والتعلم.

٤- أن السعادة على ما قال أرسطو هى الحياة بالعقل وأن لذة الحياة هى لذة التأمل العقلى. وهذه السعادة العقلية تشغل العالم الفيلسوف عن الاكتساب والخضوع لمن هم دونه فى الفهم والعلم.

٥- التأكيد على أنه كلما كثرت إدراكات الإنسان وتأملاته الفلسفية كلما كان أكثر سعادة وأعظم فضلاً ، وهنا يبلغ ابن رضوان قمة تأثره بأرسطو وخاصة حينما يقول فى ختام مقالته إن السعادة الإنسانية على اليقين هى فى التفلسف علماً وعملاً.

النـــص

«التطرق بالطب إلى السعادة»

قال على : قد بينا فيما سلف ان صناعة الطب يمكن أن تتعلم فى ثلاث سنين، وأنه لا حاجة بالطبيب إلى غير كتب بقراط وجالينوس وكتاب دياسقوريدس ولذلك أقول : أن التشاغل بغير هذه الكتب كما قال بعض الناس دار حمى للأشقياء المحرومين المكدودين الذين لهم إلى الخير المحض سبيل فيعدوه وقد تبين أن الطبيب يمكنه أن يفعل الخير ويصطنع المعروف إلى الناس فى حفظ صحة أبدانهم وشفاء أمراضهم حتى يقوموا إلى أشغالهم.

وقد قال جالينوس فى آخر المقالة الأولى من حيلة البرء: وينبغى لنا أن ننافس ونباهى الملائكة فى فعل الخير فإنه لا شىء أقبح ولا أشنع من أن يقدر على فعل الخير فيتوانا عنه ويطرحه. وحكا عن اوديسوس فى مقالته فى تعرف الإنسان عيوب نفسه: يا لك من أمر ما أقبحه وازدراه أن تعرف الخير ولا تعمل به، وقال **ارسطوطاليس:** ليس التوانى عن العناية بالخير شر. وكان **الإسكندر** يقول: مما أجدته عن معلمى **ارسطوطاليس** إنى لا أعد ملكى يوما لم أفعل فيه خيراً ولم أحسن فيه إلى إنسان، وظاهر أن الطبيب الماهر إذا قصد الإحسان إلى الناس فلابد أن يحصل له منهم ما يكفيه فى الضرورة وزيادة عليه.

قال بقراط : أنه ليس فى الدنيا شىء يفى بأجرة الطبيب إذا كانت الصحة لا عيش إلا بها، ولا يتم شىء من الأفعال إلا بها، والخلاص من المرض إنما هو الخلاص من الموت، فلذلك لا يفى شىء وأن كثر بأجرة الطبيب، لكن أجره على الله عز وجل، وما حصل له فينبغى أن يكون على وجه الهدية والصلة، فأما غير ذلك وإذا كان يمكنك فمن البين أن الطبيب يتوصل إلى الكفاية فى الضرورى، وإلى الإحسان إلى الناس وفعل الخير. ولما اجتمع بقراط مع **دمقراط فى ابديرا** المدينة ضحك **دمقراط** ضحكا افرط فيه فسأله بقراط عن السبب المضحك له فقال **دمقراط** بهذا اللفظ : اخرجنى يا بقراط إلى الضحك طول التعجب مما أرى عليه أمور الناس وأحوالهم التى أنا أشرحها لك لأنهم يفنون أعمارهم فيما لا يعود عليهم بمنفعة زمانهم مما يجب أن يهتزأ به ويضحك منه فمنهم من يجول أقطار الأرض ويتعب نفسه ويشقيها ويذلها حرصاً على اقتناء الذهب والفضة فإذا حصلا له مات وتركهما، ولم ينتفع منهما بشىء. ومنهم من يشترى الخيل والدواب والضياع والأرضين الواسعة ويعمرها ويغرس فيها الأشجار ويجعلها ملكاً خاصاً له وهو لا يقدر يملك نفسه، ما هذا الحرص الفارغ الذى لا فرق بينه وبين الكبنون، إذا افادوا المال زاد واشترى الأرضين وإذا اشتروها باعوا غلاتها وثمارها وجمعوا مالها. فكم فى السرة يتقلبون، إذا لم يكن لهم ضروة تأسفوا واغتموا، وإذا اثروا ستروا مالهم وغطوه، وخافوا وقوع الحيلة

عليهم فيه، قد شقيت نجوتهم، وتخطوا نواميس الحق لمحبتهم للمعاملة فبعضهم يعادى بعضا، وفيهم من يقاتل اخوانه وأولاد بيته، وبنى مدينته بسبب أغراض الدنيا التى إذا مات نزلها ولم يكن مالكا لها، فلم اعزل يا بقراط على ضحكى الا ترى أن السكارى إذا اختطلت عقولهم، ضحك عليهم، والعشاق تضحك منهم وليس بهم من المرض أكثر مما وصفناه. فالرؤساء يقولون الحظ والسعادة العامة، والعامة تشتهى الرياسة والمدبر للمدينة أن الصناع بأيديهم اسعد وأحمد عاقبة، والصناع يغبطون المدبر للمدينة.

قال ابقراط : قلت الحق يا **دمقراط** واقسم بالله انك لسعيد لما ربحت من هذا السلوان[1].

قال على : وقد بيّن **ارسطوطاليس** أن السعادة هى الحياة بالعقل وأن العمر الطيب[2] اللذيذ هو العمر مع العقل، إذ ليس أحد يختار الحياة وعقله عقل صبى. ومن عقول الصبيان التماس الشهوات البهيمية. وبين أيضًا فيما بعد الطبيعة أن التمتع بالشهوات وبلوغ الأمانى منها إنما هى إدراكات ملذة. ومن كان حظه من هذه الإدراكات الملذة أكثر، كان مغبوطا بما له أكثر ولذلك يكون أن من كان أكثر إدراكًا للأمور العظيمة، فهو أوفر سعادة وأكثر حظًا ولذلك صار الحيوان أفضل من

(١) فى الأصل – السلسون.
(٢) فى الأصل – الطيبب.

النبات وذلك أنه أكثر إدراكًا من قبل أنه حيوان حكيم له يدان يبطش بهما وعقل يفكر فيه ويتروّى ويتعلم، ويستعمل الكلام، والمخاطبات، ويجد أصناف الأطعمة اللذيذة، والنبات الرفيعة والنعم الحسنة، والألوان المنوعة[1] ويلتذ بما يشاهد من رؤية السماء بالكواكب ورؤية الأرض بالمياه والأنهار، ومطبوع على حب الرياسة وتتوق نفسه إلى معرفة أسباب ما يشاهد من الأشياء ومكمل بما أدرك من ذلك. ويتوق غيره بحسب ما يفضل عليه فى الإدراك ويصير أفضل منه، وهو ممن عرف عنايته إلى الريادة فى الفهم والمعرفة، وإن كان أفضل ممن لم يتزايد يظن أن حظه من أمور الدنيا أقل من حظ غيره (.....)[2] بها وذلك لثلاثة أوجه أحدها أن فضائل الا بإدخار[3] جياد للأبناء والثانى البحث الحادث عن عطايا النجوم فى المواليد، والثالث أن يعرض لمن انصرف إلى النظر فى اللذة بما يدركه من كبر النفس، ما يشغله عن الاكتساب. والخضوع إلى من هو دونه فى الفهم. وحل هذا الشك سهل لأنه لا يفوته وجود الضرورى والحظوظ مراد للإدراكات اللذيذة، ولا شىء من الإدراكات اللذيذة ولا أجل **ولا أفضل من إدراكات النظر الفلسفى**، وكلما كان إدراك الإنسان أفضل وأسعد على الحقيقة. وأفضل الإدراكات وأوفقها

(١) فى الأصل - الموقعة .

(٢) كلمة غير مقرؤة .

(٣) فى الأصل - بادخاير.

يقنيًا وصحة هى الإدراكات الفلسفية اعنى النظر فى الحكمة واستعمال العدل والسخاء والعفة فى نفقات المال. فإذن : السعادة الإنسانية على اليقين والصحة هى التفلسف علمًا وعملاً ولقد رأينا من على ذلك الطبيب إذا انصرف بعض يومه فى رياضة بدنه فى أعمال الطب وصرف ما فى يومه فى العمل الصالح والفكر فى ملكوت السماوات والأرض، وعبدالله واطاع العقل وذلك ما أردنا بيانه.

تمت مقالة على بن رضوان فى التطرق بالطب إلى السعادة. والحمد لله وصل الله على سيدنا محمد وآله وأجمعين. نقلت ذلك جميعه من نسخة دقيقة الخط إلى غاية ما يكون ما يعرف منه أول الحرف من آخر الا بفتح من الله سبحانه وتعالى، بعبارات غريبة بعيدة عن القصد والتحير فى اختصارها أو إصلاحها، ولطف الله جل وعلا بحسب ما أمكن من القدرة. ونرجو من كرم الله تصحيحها إن شاء الله تعالى وهو حسبنا ونعم الوكيل. نقل عبيد الله سلمان ابن الاسعد المتطبب عفا الله عنهما. فى شهور سنة نور عشر وثمان ماية[1] ، احسن الله عاقبتها.

(١) ١٤٠٧ م.

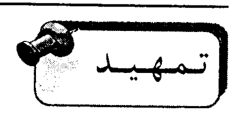


ثالثًا :

فصول من كتاب :

«رسالة فى الحيلة فى دفع مضار الأبدان بأرض مصر»(*)

(*) وهذا الكتاب لعلى ابن رضوان حققته ونشرته الدكتوره رمزية محمد الأطرقجى، وصدر عن مركز أحياء التراث العلمى العربى بجامعة بغداد، بغداد ١٩٨٨ م.

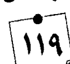


تمهيد

يكتسب هذا الكتاب لابن رضوان أهمية خاصة فى اعتقادى لعدة أسباب؛

أولها : أنه قد خصصه لدراسة البيئة المصرية موقعاً ومناخاً ودرس أثر كل ذلك على صحة المصريين وعلى ما يصابون به من أمراض.

وثانيهما : يؤسس فيه لما يمكن أن نطلق عليه باصطلاحنا الحديث «فلسفة البيئة» فهو لا يتوقف فى هذه الدراسة عند حدود تحديد موقع مصر وجغرافيتها ومناخها وإنما يدرس كل ذلك لغاية حددها وهى بيان أثر ذلك كما سبق وأشرنا على المصريين من سكان هذا الموقع ويعيشون فى هذا المناخ، وهو لا يتوقف عند حدود تأثير ذلك على صحتهم والأمراض المنتشرة بينهم وتحديد أسبابها وكيفية علاجها، بل يوضح أثره على أخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم.



وثالثها : أنه بعد تحديده لأسباب الصحة والمرض بأرض مصر، انتهى إلى أن الأمراض التى تنتشر بأرض مصر يمكن علاجها وزوال أسبابها مما يشجع على السكن بأرض مصر على حد قوله، والطريف أنه يرى كذلك أن شرور أنفس المصريين هى الأخرى سريعة القبول للعلاج مثلها مثل أمراض الجسم تماماً.

ورابعها : أنه على الرغم من اعتماد ابن رضوان على معلومات كثيرة استقاها من سابقيه إلا أنه - كما يقول د. خالص الأشعب فى تقديمه لتحقيق الكتاب - قد وقف من آرائهم موقف الناقد وجعلهاموضع نقاش وحوار. وتجلى موقفه النقدى من آراء السابقين سواء كانوا من اليونانيين كأبقراط وأرسطو وجالينوس أو من الأطباء المسلمين كابن الجزار والقيروانى والرازى، تجلى موقفه النقدى منهم بروح علمية وفند أقوالهم بأسلوب علمى رصين قل أن نجد له نظير فى الكتب الأخرى .

وخامسها : أن هذا الكتاب بما يمثله من ريادة فى دراسة بيئة مصر وجغرافيتها قد أصبح مصدراً هامًا للمعلومات لدى كبار الجغرافيين والمؤرخين من بعده؛ فقد أخذ منه المقريزى فى كتابه «المواعظ والاعتبار» المعروف بالخطط المقريزية، وكذلك ابن اياس فى كتابه الشهير «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» .

وقد كان تناول ابن رضوان لموضوع كتابه بصورة تدعو للإعجاب؛ فرغم أن الموضوع الرئيسى كما يبدو من عنوان الكتاب هو الطب لأنه معنى بدفع مضار الأبدان بأرض مصر، إلا أنه مهد لدراسة الموضوع الرئيسى بدراسة بيئية جغرافية فريدة لمصر.

فقد درس فى الفصل الأول صفة أرض مصر ومزاجها، وفى الثانى أوضح اختلاف هواء مصر وما يتولد عنه. وبدأ فى الفصل الثالث دراسة الأسباب الستة المحيطة بالصحة والمرض فى أرض مصر وفى الرابع درس فصول السنة فى مصر وخصص الفصل الخامس لنقد آراء ابن الجزار فى تحديده لأسباب وخم أرض مصر. أما الفصل السادس فخصصه لتوضيح تميز المدينة الكبرى فى مصر فى هوائها وفى جميع أحوالها. وفى الفصل السابع درس أسباب الوباء وسائر الأمراض، وفى الفصل الثامن لخص ما سبق تأكيده من أسباب الصحة والمرض بأرض مصر. أما الفصل التاسع فقد خصصه لدراسة ما أسماه «الحيلة الكلية فى حفظ الصحة ومداواة الأمراض» ، وفى الفصل العاشر تحدث عما ينبغى أن يفعله الطبيب فى معالجة الأبدان بمصر وفى الحادى عشر واصل حديثه عن كيفية تدبير الأبدان فى أرض مصر وفى الثانى عشر تحدث عما يُصلح رداءة الهواء والغذاء بأرض مصر، وفى الثالث عشر تحدث فيما يدفع به ضرر الأمراض الواردة بمصر، ثم خصص الفصل الرابع عشر للحديث عن نفع الأدوية فى دفع مضار الأبدان. أما فى الفصل الخامس عشر والأخير فقد تحدث عن أسباب اختيار السكن بأرض مصر رغم ما تفعله فى الأبدان من رداءة!

وهكذا نلمح فى تعدد الزوايا التى درس من خلالها موضوعه ما يكسب هذه الدراسة شمولاً واحاطه بعديد من العلوم.



وكم كان بديعًا من ابن رضوان أن يبدأ كتابه هذا ببيان غرضه منه والمنهج الذى يتبعه فى تحقيق هذا الغرض فى جملة واحدة قال فيها «قصدنا أن نلخص الحيلة فى دفع مضار الأبدان بأرض مصر ويحب ضرورة أن نقلب أسباب المضار وما هى كيما يتهيأ لنا الوقوف على الحيلة فى دفعها».

وكم كان بديعًا أن يعترف ابن رضوان فى مطلع هذا الكتاب بأنه سبقه إلى دراسة هذا الموضوع عالم آخر هو الحكيم إبراهيم الطبيب المغربى المعروف بابن الجزار الذى وضع كتاب بعنوان «كتاب فى نعت الأسباب المولدة للوباء فى مصر وطريقة الحيلة فى دفع ذلك وعلاج ما يتخوف منه».

فاعترف بفضله وريادته وأخذه عنه لكنه أوضح فى ذات الوقت الميزة التى ستتوفر لكتابه والجديد الذى سيضيفه فى دراسته لذات الموضوع، ولخص ذلك أيضًا فى جملة واحدة قال فيها : «كتابنا هذا يزيد على كتابه بمقدار فضل قوتنا على قوته فى أنواع الغذاء ومقداره بأرض مصر بالمشاهدة دون الخبر سنين كثيرة متوالية ومن أحب الإنصات وأثر العدل فسيقف على صدق هذا القول».

ولندقق فيما قاله على ابن رضوان عن الجديد الذى أضافه على كتاب سابقه عن مصر، وسنجد أن هذا الجديد يتلخص فى إضافة



منهجية غاية فى الأهمية وهى اتباعه المنهج الاستقرائى الذى يعتمد على المشاهدة والخبرة المباشرة بموضوع الدراسة وليس الاعتماد على ما يسمعه من هذا أو ذاك حوله. وهذه الاضافة المنهجية من على ابن رضوان تشير إلى أنه فى هذا الكتاب بالذات يتجاوز دراساته السابقة التى كانت فيما بدا لنا تعتمد على النقل عن السابقين واستنباط نتائج جديدة مما قالوا! ولذلك فالجدير بنا أن نركز على قراءة هذه النصوص الهامة من هذا الكتاب إذا أردنا أن نستخلص مواطن الإضافة والابتكار عنده ، فهى واضحة فى هذا الكتاب أكثر من وضوحها فى مؤلفاته الأخرى.

النــــص

١ - فى صفة أرض مصر ومزاجها

اسم مصر فيما نقلت الرواة يدل على أحد أولاد نوح النبى عليه الصلاة والسلام، فأنهم ذكروا أن مصر هذا نزل بهذه الأرض فأنسل فيها وعمرها فسميت باسمه، والذى يدل عليه هذا الاسم اليوم هو الأرض التى يفيض عليها النيل، ويحيط بها حدود أربعة : وهو أن الشمس تشرق على أقصى العمارة بالمشرق قبل شروقها على هذه الأرض بثلاث ساعات وثلث، وتغيب عنها قبل أن تغيب عن آخر العمارة بالمغرب بثلاث ساعات وثلثى الساعة، فيجب من ذلك أن تكون هذه الأرض فى النصف الغربى من الربع العامر[٢] على ما قال

(١) قيل سميت بمصر قبل الطوفان نسبة إلى مصريم بن مركائيل بن دوابيل بن غرياب بن آدم، وهذا هو مصر الأول، وقيل بل سميت بمصر الثانى وهو مصرام بن نقراوش الجبارين مصريم الأول، وقيل سميت مصر، باسم مصر بن بيصر بن حسام بن نوح، فقد ساق مصر اباه وجميع أخوته إلى مصر وسكنوا منف، وهى أول مدينة عمرت بمصر فسكنها بيصر بولده وهم ثلاثون نفسا وكان مصر أكبرهم، هذا ما سميت به بعد الطوفان.

(ابن عبدالحكم : فتوح مصر وأخبارها ٩، ياقوت معجم البلدان جـ١٣٧/٥، ابن خرداذبة ص٨٠).

الدمشقى : نخبة الدهر ٢٢٩ ، ابن ثغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٤٨/١ .

ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة ٦-٨.

وانظر المقريزى جـ١٨/١-١٩ عن ذكر اشتقاق مصر ومعناها وتعداد أسمائها.

(٢) كان ذلك قبل اكتشاف العالم الجديد والأمريكتين على وجه الخصوص فكان الفينيقيون واليونان ومن بعدهم العرب يعتبرون جزر السعادات والخالدات نهاية العمارة فى الغرب.

ابقـراط[١] وبطليـمـوس[٢]، هو أقل حـرارة وأكـثـر رطوبة من النصف الشـرقى فى قـسم كـوكب الشـمس وذلك لأن الشـمس تشـرق على النصف الشرقى قبل شـروقـها على النصف الغربى، والقمـر يهل على النصف الغربى قبل النصف الشرقى، وقد زعم قـوم من القدماء[٣] أن أرض مـصـر فى وسط الربع المعـمور من الأرض بالطبع، فأما بالقيـاس فعلى ما قدمنا وصفه من أنها من النصف الغربى، والحد الثالث[٤] هو

(١) ابقـراط : طبيب يونانى، ولد فى مدينة (قوصل) فى جزيرة تقع فى بحر ايجة وتعلم صناعـة الطب من ابيه ايراقليـدس ومن جده ابقـراط، نظر فى صناعـة الطب وخـاف عليها أن تتعرض لقلة الأبناء المتوارثين لها من آل اسقليبوس، قال على بن رضوان: «كـانت صناعـة الطب قـبل ابقـراط كنزا وذخيـرة يكنزها الآباء ويدخـرونهـا للأبناء، وكـانت فى أهل بيت واحد منسوب إلى اسقليبـوس (النافع فى كيفية تعلم صناعة الطب المقالة الأولى) وابن ابن اصيبعة : ٤٣-٤٤ .

(٢) عالم فلك، ورياضة، وجغرافية، وفيزياء، يونانى، نشأ بالإسكندرية فى الربع الثانى من القرن الثانى الميلادى، له أرصاد هامة عن الكواكب، وله مكانة فى تاريخ العلوم، كتابه المسمى (المجسطى) يبحث عن الفلك والرياضيات (الموسوعة العربية الميسـرة: ٣٨١) وفى سنة ١٥٠ ق.م رسم هذا العالم الجغـرافى خـريطة فيهـا نهـر النيل مبـتدئًا من بحيرتين تقعان بين جبلين تغطيهما الثلوج اطلق عليهما اسم جبال القمر (فيوليت واينجارتن : النيل شريان الحياة فى مصر).

(٣) القدما : هكذا فى الأصل.

(٤) جاء فى معجم البلدان جـ٥/١٣٧ أن المدن فى الأقليم الثالث تشمل على الفسطاط، الإسكندرية ، اخميم، وغوص، واهناس، والمقس، وكورة الفيوم، ومدينة القلزم، ومدن اتريب، وبنى.

أن أول بعد هذه الأرض عن خط الاستواء[١] في جهة الجنوب هو المدينة المعروفة من أرض مصر، بأسوان[٢]، بعد هذه المدينة عن خط الاستواء اثنتان وعشرون درجة ونصف بالأجزاء التي بها أعظم دائرة تقع على الأرض ثلاثمائة وستون جزءاً فمن البين ان الشمس تسامت (رؤوس)[٣] هل هذه البلدة مرتين في السنة، اعنى عند كونها في آخر (الجوزاء)[٤] وفي أول السرطان والجدى، وفي هذين الوقتين لا يكون للقائم في هذه البلدة في نصف النهار ظل أصلاً للحرارة واليبس والاحتراق، إذا غالب على مزاج هذه البلدة لأن الشمس تنعش رطوبتها ولذلك صارت ألوانهم سود وشعورهم جعدة لاحتراق أرضهم.

والحد الرابع وهو الشمالي هو آخر بعد بأرض مصر عن خط الاستواء من جهة الشمال واحد وثلاثون، طرفه بحر الروم[٥]، وعليه من أرض

---

(١) الاستوا : هكذا في الأصل.

(٢) اسوان : أكبر مدن الصعيد، تقع على خط عرض ٣٠ً - ٢٤,٥ً شمالاً على الضفة الشرقية للنيل، وكانت أسوان في مختلف العصور على شيء من الأهمية الاقتصادية لأنها كانت السوق الطبيعي لتجارة النوبة، وفي هذا الوقت أثر الخزان الهائل أثراً كبيراً في جوها، واكسبها منظراً بديعاً.
(ابن حوقل: صورة الأرض، ودائرة المعارف: مادة اسوان جـ ١٩٧/٢ ، محمد ثابت الفندى وأحمد الشنتناوى وغيرهم).

(٣) روس : هكذا في الأصل.

(٤) الجوزا : هكذا في الأصل، وهي برج من أبراج السماء.

(٥) بحر الروم : هذا الاسم مشتق من اسم بلاد الروم وهو الاسم العربي للبحر المتوسط ويسمى أيضًا البحر الأخضر كان حد أرض مصر ينتهي إلى الجهة الشمالية إلى هذا البحر وهو نهاية مصب النيل وبالإضافة إلى المدن المذكورة اعلاه، تقع عليه مدينة العريش انظر المقريزى جـ١ /١٧ ، ودائرة المعارف : ٣٧٧ مادة بحر الروم.

مصر بلدان كثيرة (كالإسكندرية، ورشيد)[١] ، وتنيس[٢] ، ودمياط[٣] ،

(١) رشيد: من أهم مدن مصر بسبب موقعها وتجارتها، تقع على فرع النيل المسمى بها عند قصبة في البحر المتوسط شرقى الإسكندرية ومصب النيل فى البحر عند رشيد يسمى الارمسية، وقد استمد فرع النيل الذى يمر أمام هذه المدينة اسمه من اسمها، وقد كانت هذه المدينة قليلة الأهمية فى زمن أبوالفداء (ابن عبدالحكم: فتوح مصر والمغرب ١٢٥) تقويم البلدان ١١٧ ، على مبارك الخطط التوفيقية جـ١١/٧٥، علماء الحملة الفرنسية، دراسات عن المدن والأقاليم المصرية ٢٢٤).

(٢) تنيس : تقع تنيس فى جزيرة وسط بحيرة تعرف ببحيرة تنيس، وهذه البحيرة تعذب وقت مجئ النيل وتقيم ستة أشهر حلوة ثم تملح، وقال محمد بن أحمد بن بسام: كانت تنيس من الإقليم الرابع بنتها امرأة تسمى تنيس بنت صابن توارس، أحد ملوك القبط بمصر، وكانت صحيحة الهواء قليلة الوباء، وقيل سميت باسم تنيس بنت دلوكة الملكة فهى أول من بنى تنيس وسمتها باسمها وقيل أنها سميت باسم تنيس بن حسام بن نوح وكانت ذات حدائق وبساتين، واجرت النيل إليها، وكانت تنيس مدينة كبيرة وفيها آثار كثيرة للأوائل وكان أهلها مياسير أصحاب ثراء وأكثرهم حاكة يعملون الثياب من الديبقى والقصب والخمل، وقد خربت وبارت، وهى اليوم خالية وهى تقع بين الفرما ودمياط.

حـ ١/١٧٧ ، الخطط التوفيقية حـ١٠/٤٤ وعلماء الحملة المصرية: دراسات عن المدن والأقاليم المصرية ٤٠ (اليعقوبى: كتاب البلدان ٣٣٧ . ابن اياس : بدائع الزهور حـ١/٢٥ معجم البلدان حـ٢/٥٢ .

المسعودى: أخبار الزمان ٤٩ تقويم البلدان ١١٩ والبغداذى: مراصد الاطلاع ٢٧٨ ، خطط المقريزى.

(٣) دمياط : بناها دمياط بن اشمون بن مصريم بن بيصر بن حسام بن نوح فسميت به، وقد فتحت هذه المدينة على يد المقداد بن الأسود، وكان بها ملك يقال له الهاموك، وهو خال المقوقس، وكانت فى العصور الوسطى مركزا لتصدير المنسوجات المصنوعة فيها، وأهمها الكتاب المسمى الدمياطى، مشهورا فى العالم الإسلامى (ابن اياس حـ١/١٢٥) وابوالفداء : تقويم ١١٧ ، خطط المقريزى حـ١/٢١٣ وخطط المقريزى حـ١/٢١٣ .



والفرما[1] ، وبعد دمياط[2] عن خط (الاستواء)[3] فى الشمال أحد وثلاثون (جزءاً)[4] وثلث[5] الأجزاء التى فيها أعظم دائرة تقع على كرة الأرض ثلاثمائة وستون جزءاً، وهذا البعد آخر الأقليم الثالث، وأول الرابع، والشمس إذا لا تبعد عنهم كل البعد ولا تقرب منهم كل

(١) الفرما : تقع على شط بحيرة تنيس، وعندها يقرب بحر الروم من بحر القلزم، وبها قبر جالينوس مرض وهو فى طريقه من أسيوط إلى الشام ومات بالفرما وكان عمرو بن العاص قد فتحها واراد أن يخرق ما بين الروم وبحر القلزم فنهاه عمر بن الخطاب عن ذلك، وسميت الفرما بأرض الإسكندر، وقد بنى المتوكل حصنا سنة ٢٣٩هـ، وهى أول مدن مصر، كانت عامرة إلى أن أغار عليها الفرنج فى سنة ٥٤٥هـ فاحرقوها ونهبوا أهلها، وقيل كان بها أبواب كثيرة من حجارة فهدموها، وهى الأبوب التى قال يعقوب عليه السلام لبنيه : «يا بنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة، وكان أكثر أهلها من القبط، وقد ذكر ابونؤاس فى قصيدته التى مدح فيه الخصيب فقال :

واصبحن قد فوزن عن نهر فطرس
وهن عن البيت المقدس زور
طوالب بالركبان غزة هاشم
وبالفرما من حاجبهن ثغور

انظر (ياقوت : معجم البلدان جـ٢٥٥/٤ ، واليعقوبى: البلدان ٣٣٧، والبكرى: معجم ما استعجم جـ١٠٢٢/٣) ابن حوقل: صورة الأرض ١٤٩، ابو الفداء : تقويم البلدان ١٥٦ .

ابن دقاق : الانتصار بواسطة عقد الامصار جـ٥٣/٢ والحميرى الروض المعطار ٤٣٩ والمقريزى: خطط جـ٢١١/١ .

(٢) جاءت فى نسخة دار الكتب تنيس وليس دمياط.

(٣) الاستوا : هكذا جاءت فى الأصل.

(٤) جاءت فى نسخة دار الكتب (درجة) وليس جزءاً.

(٥) جاء فى معجم البلدان جـ ١٣٧/٥ احد وثلاثون جزءاً فقط.

القرب، والغالب عليهم الاعتدال مع ميل يسير نحو الحرارة، إذ الموضع المعتدل على الصحة فى البلدان العامرة هو وسط الأقليم الرابع، ومجاورة هذه البلدة البحر واحاطته بها مما يجعلها معتدلة بين الحر والبرد خارجة عن الاعتدال إلى الرطوبة فيكون الغالب عليها المزاج الرطب الذى ليس بحار ولا رطب بارد. ولذلك صارت ألوانهم سمراء واحداقهم شهلة، وشعورهم سبطة.

وإذا كان أول مصر من جهة الجنوب الغالب عليه الاحتراق، وآخرها من جهة الشمال الغالب عليه الاعتدال مع ميل يسير نحو الحرارة فيما بين هذين الموضعين من أرض مصر الغالب عليه الحرارة، وتكون قوة حرارته بقدر بعده عن أسوان، وقربه من بحر الروم، ومن أجل هذا قال بقراط وجالينوس[1]: «ان المزاج الغالب على أرض مصر، الحرارة ولذا قد حددناها (وذكرنا)[2] مزاجها، فلنأخذ فى وصفها» فنقول: هذه الأرض محصورة بين جبلين اخذين من الجنوب إلى الشمال قليلى الارتفاع، واحدهما أعظم من الآخر، فالأعظم منهما هو الشرقى المعروف بالمقطم[3] وأما الغربى فصغير، وبعضه غير متصل ببعض،

---

(١) هو الثامن من رؤوساء الأطباء الذين أولهم اسقيبادس مخترع الطب، ظهر جالينوس بعد ٦٦٥ سنة من وفاة بقراط، مدة حياته سبعا وثمانين سنة وتوفى فى مدينة الفرما كما مر سابقا (اصيبعة ١٠٩-١٥٠ وابن النديم : الفهرست ٣٤٧).

(٢) كررت فى الأصل.

(٣) المقطم: هو الجبل المشرف على القرافة، مقبرة الفسطاط والقاهرة يمتد من أسوان وبلاد الحبشة على شاطئ النيل الشرقى حتى يكون منقطعة طرف القاهرة، ويسمى من كل موضع باسم، والمقطم مأخوذ من القطم وهو القطع كأنه لما كان منقطع الشجر والنبات وسمى المقطم، وبه جملة من قبور الأنبياء عليهم السلام (ابن عبدالحكم ٢١١ ومعجم البلدان ١٧٦/٥ والحميرى: الروض المعطار ٥٥٧).

والمسافة التى بينهما تضيق فى بعض المواضع وتتسع فى بعضها وأوسع ما يكون بأسفل أرض مصر. وهذان الجبلان اقرعان لا ينبت فيهما النبات كما يكون فى جبال البلدان الأخرى، وعلة ذلك أنهما بورقيان، مالحان، لان لطين مصر قوة تجذب منها الرطوبة المرافقة فى التكون، ولان قوة الحرارة تحلل منها الجوهر اللطيف العذب، ولا يرتقى إليهما من البحر وينوط عليهما من الأمطار ما يخلق عليهما هذا الجوهر العذب، وكذلك مياه الآبار فيهما مالحة (ويجرفان)[1] ما يدفن فيهما فأن أرض مصر بالطبع قليلة الأمطار، والجبل المقطم فى شرق هذه الأرض يعوق عنها ريح الصبا، فلم ير أحد قط بفسطاط[2] مصر صبًا خالصة لكن متى هبت الصبا عندهم كانت نكبا بين الشرق والشمال، والشرق والجنوب، وهذه الريح يابسة مانعة من العفن عدمت (أرض)[3] مصر هذه الفضيلة، ومن أجل ذلك (صارت)[4] المواضع التى تهب فيها هذه الريح من هذه الأرض أحسن حالاً من غيرها، كالإسكندرية، وتنيس، ودمياط ويعوق أيضاً[5] هذان الجبلان اشراق الشمس على هذه الأرض، إذا كانت على الأفق (فيكون زمان اشعاع الشمس على هذه الأرض)[6] اقل من الطبيعى ومثل هذه الحالة سببا لركود (الهواء)[7] وغلظه،

(١) يجرفا ان : هكذا فى الأصل.
(٢)
(٣) سقطت من نسخة دار الكتب.
(٤) سقطت من نسخة المتحف العراقى.
(٥) ايفم : هكذا فى الأصل.
(٦) سقطت من نسخة المتحف العراقى.
(٧) الهوى : هكذا فى الأصل.



وأرض مصر كثيرة الحيوان والنبات جداً، فانك لا تكاد تجد فيها موضعاً خلوا من النبات والحيوان وهى متخلخلة كما قال «غورس»[1] والدليل على تخلخلها أنك تراها عند انصراف النيل بمنزلة الحماة[2]، فإذا حللت الحرارة ما فيها من الرطوبة تشققت شقوقًا عظامًا، ومن الظاهر عند الأوائل أن المواضع الكثيرة الحيوان والنبات هى أيضًا كثيرة العفونة، وقد اجتمع أيضاً على هذه الأرض حرارة مزاجها وسخافتها[3] وكثرة ما فيها من الحيوان والنبات، وذلك مما يوجب ضرورة احتراقها، ومن أجل هذا اسود طينها من الاحتراق فصارت أرضًا سوداء، وما قرب منها من الجبل السبخ وصار بورقيا أو مالحًا وصار يظهر فى هذه الأرض فيضًا بالعشيات بخار اسوداً أو اغبراً، وخاصة فى أيام الصيف.

وأرض مصر ذات أجزاء كثيرة، ويختص كل (جزء)[4] منها بشىء دون شىء وعلة ذلك ضيق عرضها، واشتمال طولها على عرض الإقليم الثانى والثالث فأن الصعيد فيه من النخل والسنط[5] وآجام القصب

(١) غورس : هو الثانى من أطباء اليونانيين المشهورين بعد اسقليبوس وكانت مدة حياته سبعا وأربعين سنة منها صبى ومتعلم سبع عشرة سنة، وعالم معلم ثلاثين سنة نظر فى رأى التجربة وخلف من التلاميذ من بين ولد وقريب سبعة ابن ابى اصيبعة٣٩-٤٠ .

(٢) الحماة : الطين الأسود المنتن (القاموس المحيط حـ١٢/١).

(٣) رقتها أو ضعفها.

(٤) جاءت فى دار الكتب كلمة واحد بدلاً من جزء .

(٥) السفط: يقال انه ابنوس غيرته بقعة مصر فصار أحمر، صلب الكسر سريع الاشتعال، وهى شجرة عظيمة مشهورة فى ديار مصر وهى احطابهم التى كانوا يحروقونها، وتسمى الشوكة المصرية، وصمغها هو الصمغ العربى، وتسمى شجرة (أم غيلان) (القرطبى: شرح أسماء العقار، وابن ظهيرة، الفضائل الباهرة ١٣٥).



والبردى، ومواضع أطراق الفحم وغير ذلك شىء كثيراً جداً، والفيوم[١] فيه أيضًا من النقائع[٢] وآجام القصب والارز، ومواضع تعفين الكتان شىء كثير، وأسفل (أرض)[٣] مصر فيه من النبات أنواع كالقلقاس[٤] والموز ونحو ذلك، وبالجملة فكل بقعة من أرض مصر لها أشياء تختص بها وتفضل عن غيرها.

(١) من مدن مصر بناها النبى يوسف عليه السلام، وكانت يومئذ تدعى (الجونة) ففتح لها ثلاث خلجان يصل ماؤها إلى النيل، وقطع الفعلة ما كان فيها من القصب والطرفاء وصارت الجونة أرضاً برية، فخرج إليها فرعون ووزراءه، وكان هذا كله فى سبعين يوماً، فلما نظر إليها الملك قال لوزراءه: هذا عمل (ألف يوم) فسميت الفيوم، تقع ببحيرة قارون فى الشمال الغربى منها، وتشتهر بزراعة الأرز والموالح والتين.
انظر: (ابن عبدالحكم: فتوح مصر ١٤-١٥ وابن ظهيرة، الفضائل ٦٠ والموسوعة العربية الميسرة).

(٢) النقايع: هكذا فى الأصل.

(٣) سقطت من نسخة دار الكتب.

(٤) ذكر المؤلف فى هامش ص١٢ من المخطوطة عن القلقاس: «لقد قيل لولا وجود القلقاس بأرض مصر لكانت الحصوة عمت أغلب الناس، وهو النافع للبدن فى تحليل هذا الداء».
والقلقاس: نبات عقولى جميل من فصيلة القلقاسيات، منبته الأصلى جنوبى شرقى آسيا وخاصة الهند وبعض أجزاء المحيط الهادى وتكثر زراعته بالمناطق الاستوائية وتحت الاستوائية ويزرع فى الشرق الأوسط منذ أبعد العصور، أوراقه كبيرة خضراء، ولبه النشوى شبيه بلب البطاطا، يكون تحت الأرض ساقاً كبيرة الحجم مستديرة أو مطاولة قليلاً، وهو من خضر الشتاء، يؤكل مطبوخاً أو مشوياً أومجففاً مسحوقاً، واسمه العلمى (قلقاسيا انتيكورم) (المنجد فى اللغة والاعلام، ٦٥١ والموسوعة العربية الميسرة: ١٣٩٢).

(٥) انظر الفصل الثانى والثالث من كتاب (نهر النيل فى المكتبة العربية لمحمد المناوى).



والنيل يمر بأمم كثيرة[١] من السودان ثم يصير إلى أرض مصر وقد غسل ما في بلاد السودان من العفونات والأوساخ ويشق ماراً بأرض مصر من الجنوب إلى الشمال إلى أن يصب في بحر الروم، ومبدأ زيادة هذا البحر في فصل الصيف، ومنتهى زيادته في فصل الخريف[٢]، ويرتقى منه في الجو في أوقات مدّه رطوبات كثيرة بالتحليل الخفى ، فيرطب ذلك يبس الصيف والخريف، وإذا مدّ هذا النهر فاضى على أرض مصر فغسل ما فيها من الأوساخ نحو جيف الحيوان وأزبالها، وفضول الآجام والنبات، ومياه النقائع وأحدث جميع ذلك معه وخالطه من تراب هذه الأرض وطينها مقدار كبير من أجل سخافتها، وباض فيه السمك الذى يربى في مياه النقائع، ومن أجل ذلك تراه في أول مدة يخضر لونه لكثرة ما يخالطه من مياه النقائع العفنة التى قد اجتمع فيها العرمض[٣] والطحلب[٤] وأخضر لونه من عفنها ثم يتعكر حتى يصير

(١) انظر الفصل الثانى والثالث من كتاب (نهر النيل فى المكتبة العربية لمحمد المناوى).

(٢) يقول الكندى فى (فضائل مصر) ص٦٣ أنه ليس في الدنيا نهر يزيد بترتيب غير نيل مصر، وقد ذكر المناوى فى كتابه (نهر النيل فى المكتبة العربية ص١٤٣ نقلاً عن هيرودوت فى مصر ص٣٥ أن الفيضان مائة يوم) .

(٣) العرمض : من شجر العضاة (العضاة جمعها عضون وعضوات، أعظم الشجل مثل الدر والغرب والعوسج) لها شوك أمثال مناقير الطير وهو أصلها عيدانا، والعمر من صغار السدر والأراك وواحدة عرمضة، وروى عن بعض الأعراب، العرمض، من السدر صغار لا يكبر ولا يسمو شوكه ، وقيل وهو سدر فمى وقيل أيضًا العرمض من كل شجر لا يعظم أبدا، أى صغار الشجر كله، والعرمض الطحلب وهو الأخضر الذى يخرج من أسفل الماء حتى يعلو كالصوف المنقوش فى الماء المزمن ويسمى نور الماء. (الزبيدى : معجم أسماء النباتات ١٠١) .

(٤) الطحلب: هو الخضرة المشبهة بالعدس في شكلها الموجودة فى الآجام على المياه القائمة، له فوائد طبية اقرأ الجامع لمفردات الأدوية جـ٩٨/٣ .

أجزاء بمنزلة الحماة، وإذا صفى اجتمع فى الإناء طين كثير ورطوبة لزجة لها سهوكة ورائحة منكرة، وهذا من أوكد الأشياء فى ظهور رداءة هذا الماء وعفنه ، وقد بين أبقراط وجالينوس : إن أسرع المياه إلى العفن ما لطفته الشمس كمياه الأمطار، ومن شأن هذا الماء أن يصل إلى أرض مصر وهو فى الغاية من اللطافة من شدة حرارة بلاد السودان، فإذا اختلطت به عفونات أرض مصر زاد ذلك فى استحالته ، ولذلك يتولد فيه من أنواع السمك شيء كثير جداً، فأن فضول الحيوان من تكون هذه السموك، كما قال أرسطوطاليس[1] فى كتاب الحيوان، وذلك أيضاً شيء ظاهر للحسّ، فأن كل شيء يتعفن يتولد من عفونته الحيوان ، ولهذا صار ما يتولد من الفار والدود والثعابين والعقارب والزنانير وغيرها بأرض مصر كثيراً، وقد استبان أن المزاج الغالب على أرض مصر، الحرارة والرطوبة الفضلية[2] وأنها ذات أجزاء كثيرة، وكان (هواؤها وماؤها رديئين)[3] .

---

(١) أرسطاليس : كان أبوه نيقوماخس متطببا لفليبس أبى الأسكندر، عاش ست وستون سنة، وكان أبوه نيقوماخس متطبب لفليبس أبى الأسكندر، عاش ست وستون سنة فى أخر أيام الاسكندر سنة (٣٢٢ ق.م) وهو مربى الاسكندر، مؤلفاته فى المنطق والطبيعيات والآلهيات والأخلاق أهمها المقولات (الفهرست: ٣٠٨ والمنجد، الطبعة التاسعة ٣٤) .

(٢) الرطوبة الفضلية: أي خارجة عن المجرى الطبيعى كرطوبة المطر الحادث فى الصيف (المقريزى الخطط ١/ ٤٤) .

(٣) هواءاها وماءها رديان : هكذا فى الأصل .

٢- فى صفة اختلاف هواء أرض مصر وما يتولد فيها

قد تبين فيما تقدم أن الغالب على مزاج أرض مصر الحرارة التى معها (رطوبة)[١] وقد بين (الأوائل)[٢] أن المواضع الكثيرة العفن فيحل منها فى الهواء فضول كثيرة لا تدعه يستقر على حال لاختلاف تصاعدها[٣]، وقد كان استبان أيضًا أن هواء أرض مصر ليسرع إليه التغيير لأن الشمس لا يلبث عليها شعاعها المدة الطبيعية فمن أجل هذا كثر اختلاف هواء أرض مصر. فصار يوجد فى اليوم الواحد على حالات مختلفة مرة حر وأخرى برد، ومرة يابس، وأخرى رطب، ومرة متحرك وأخرى ساكن، ومرة الشمس صاحية، وأخرى سترها الغيم .

وبالجملة هواء أرض مصر كثير الاختلاف من أجل ما قلنا اختلافه غير لازم لطريقة واحدة فيلزم ضرورة أن يكون الروح الحيوانى الذى فينا بمواصلة لهذا الهواء غير لازم .

(١) جاءت فى نسخة دار الكتب كلمة عفونة بدل رطوبة .

(٢) سقطت كلمة الأوائل من نسخة المتحف العراقى .

(٣) من هنا والتى جاءت فى ص١٤ من نسخة المتحف العراقى حتى ص١٩ من نفس النسخة، جاء الكلام فى الفصل الرابع فى نسخة مخطوطة دار الكتب بدلاً من الفصل الثانى وقد يكون هذا من فعل المنضد .

٣- فى الأسباب الستة المختص بالصحة والمرض بأرض مصر

إن الله عز وجل لما خلق الأشياء جعل بعضها مرتبطًا ببعض، فجعل للصحة والمرض أسبابًا كثيرة منها : ما يتفق اتفاقًا ، كالردم والضرب والحرق والغرق وغير ذلك.

وليس من هذه الأشياء شيء ينظر فيه الأطباء ومنها ما هو ضرورة موجودة أبدًا للإنسان ، وهى على ما عده الأوائل ستة :

الأول منها : الهواء المحيط بأبدان الناس .

والثانى : ما يؤكل ويشرب .

والثالث : الحركة والسكون .

والرابع : النوم واليقظة .

والخامس : الاحتقان والاستفراغ .

والسادس : الأحداث النفسانية .

وقد خصصنا أمر الهواء المحيط بأرض مصر، فيما تقدم، ومن البين عند الأوائل أن الهواء الزم ما جرت به عادته لم يحدث مرضًا اللهم إلا أن يكون بعض الأبدان ، فتخرج عن مشاكلته بأمر آخر وهو مستعد لقبول



المرض فيعرض له المرض بخروجه عن المشاكلة، واستعداده وكذلك القول فى باقى الأسباب إذا هى لزمت عاداتها لم تحدث مرضًا فإذا كان الأمر كما وصفنا فلنقل الآن فى هذه .

أما (جنس)[١] ما يؤكل ويشرب بأرض مصر فأن الغلات سريعة التغير سخيفة متخلخلة تفسد فى الزمان اليسير كالحنطة والشعير والعدس والحمص والباقلاء والجلبان[٢] فإن هذه تسوس فى المدة اليسيرة وليس لشيء من الأغذية التى يعمل منها لذاذة ما كنظيره فى البلدان الأخرى. وذلك أن الخبر المعمول به من الحنطة المعمولة بمصر (متى)[٣] لبث يومًا وليلة، لا يؤكل، ولم يوجد له ذلك لذاذة ولا تماسكًا، لبعضه ببعض، ولا يوجد فيه علوكة ولكن ينكسر فى الزمان اليسير . وكذلك الدقيق وهذا خلاف أطيار البلدان الأخرى. وكذلك الحال فى جميع

(١) سقطت من نسخة دار الكتب .

(٣) الجلبان : واسمه العلمى (ثيروس ساتيفس) وهو نبات له قضبان مربعة ينبسط على الأرض، وله ورق حوالى القضبان إلى الطول منحنية على القضيب يؤكل نيًا فى الربيع ثم يجف ويطبخ، (ابن البيطار: الجامع لمفردات الأدوية ١٦٤) وجدت حبوبه ضمن آثار قدماء المصريين، كما عثر عليها ضمن آثار العصر الحجرى بالمجر، وهو نبات ذو فائدة اقتصادية يستعمل إما للزينة أو علفًا أو سمادًا، وهو من أغذية الأكرة والفلاحين ولتغذية الدواجن وهو الذى يسمى العتر، ومنه صنف كبير لا يؤكل إلا مطبوخًا وهو كالماش يزرع بمصر فى محافظتى قنا وأسوان (الغسانى: المعتمد ٧٠ ابن ظهيرة ١٣٤ والموسوعة العربية ٦٣٦) .

(٣) سقطت من نسخة دار الكتب .



غلات مصر وفواكهها وما يعمل منها فأنها وشيكة الزوال سريعة الاستحالة والتغير، فأما ما يحمل من هذه إلى أرض مصر فظاهر أن مزاجها يتبدل باختلاف الهواء عليها ويستحيل عما كانت عليه مشاكلة أرض مصر إلا أن ما كان من هذه حديثاً قريب العهد بالسفر، فقد بقيت فيه من جودته بقايا صالحة، فهذا حال الغلات .

وأما الحيوان الذي يؤكله الناس فالبلدى منه مزاجه مشاكل لمزاج الناس لهذه الأرض من السخافة وسرعة الاستحالة، فهو على هذا ملائم لطبائعهم والمجلوب منه كالكباش البرقية، فالسفر يحدث فى أبدانها قحلاً ويبساً وأخلاطاً لا يشاكل مزاج المصريين ولهذا إذا دخلت مصر مرض أكثر، فإذا أقامت بها زماناً صالحًا تبدل مزاجها ووافق مزاج المصريين .

وأهل مصر يشرب الجمهور منهم من النيل، وقد قلنا فى النيل ما فيه كفاية، وبعضهم من يشربها بهذه الأرض، وأجود الأشربة عندهم الشمسى لأن العسل الذى فيه يحفظ قوته ولا يدعه يتغير بسرعة والزمان الذى يعمل فيه خالص الحر فهو ينضجه والزبيب الذى يعمل منه مجلوب من بلاد أجود هواءاً . وأما الخمر فقل من يعتصرها ألا ويلقى معها عسلاً ولأنها معتصرة من كرومهم تكون مشاكلة أيضاً لهم

ولهذا صاروا يختارون الشمسى[1] عليها وأما ما عدا الشمسى والخمر من الأشربة بأرض مصر فردئ لا خير فيه لسرعة استحالته وفساد مادته كالنبيذ التمرى[2]، والمطبوخ والمزر[3] المعمول من الحنطة وأغذية أهل مصر مختلفة فأن أهل الصعيد يغتذون كثيراً بتمر النخيل والحلاوة المعمولة من قصب السكر ويحملونها إلى الفسطاط وغيرها، فتباع هناك وتؤكل ، وكثير من أهل مصر يكثرون من أكل السمك طريًا ومالحًا، وكثير يكثرون أكل الألبان وما تعمل منها .

وعند فلاحيهم نوع من الخبز يدعى كعكًا يعمل من جريش الحنطة ويجفف وهو أكلهم السنة كلها، وبالجملة فكل قوم منهم أنبتت أبدانهم من أشياء بأعيانها فالفتها ونشأت عليها، إلا أن الغالب عليها بالجملة على أهل مصر الأغذية (الرديئة)[4] وليست تغيير مزاجهم ما دامت

(١) الشمسى : لم أتوصل إلى معرفة الشمسى، ولكنى وجدت فى صورة الأرض لابن حوقل ١٥٠ ، أن فى قرية من قرى الفسطاط تدعى (شبروا)، كانت على عهد ابن حوقل، يقول: «كان يعمل فيها شراب العسل عند زيادة النيل، فلا يخالط العسل والماء ثالث من خلط ، وهذا الشراب مشهور فى جميع الأرض، لذته ومحل نشوئه وخمر رائحته» ولذلك كان يفضله المصريون على غيره من الشراب واعتقد هذا هو الشمسى .

(٢) النبيذ التمرى : هو من الأشربة المسكرة وهو الشراب المتخد من التمر (المعتمد : ٥١٦) .

(٣) المزر : الجعة أو البيرة (الكرملى : نشوء اللغة ٩٥ أو نبيذ الذرة خاصة الرافد: معجم للأمير آل ناصر الدين جـ٢/١٥٣) .

(٤) الردية : هكذا فى الأصل .

جارية على العادة، وهذا أيضًا مما يؤكد أمرهم فى السخافة وسرعة الوقوع فى الأمراض، وأيضًا فأهل الريف أكثر حركة ورياضة من أهل المدن، وكذلك هم أصح أبدانًا لأن الرياضة تقوى أبدانهم .

وأهل الصعيد أخلاطهم أرق وأكثر دخانية وتحللاً وسخافة لشدة حرارة أرضهم من أهل أسفل أرض مصر وأهل أسفل الأرض تكون أكثر استفراغ فضولهم بالبراز والبول لفتور الحرارة فى أرض واستعمالهم الأشياء الباردة والغليظة فأما أخلاق المصريين فبعضها شبيهًا ببعض لأن قوى النفس تابعة لمزاج البدن وأبدانهم سخيفة سريعة التغير قليلة الصبر والجلد لذلك أخلاقهم تغلب عليها الاستحالة والتنقل من شىء إلى شىء، ومنهم من خصه الله تعالى بالفضل وحسن الخلق وبراءة من الشرور .

٤ - فى فصول السنة بأرض مصر

إن جالينوس يرى ويعتقد أن فصل الربيع (طبيعته طبيعية)(١) الاعتدال ويناقض فى كتابة المزاج من ظن أنه حار رطب ومن شأن هذا الفصل أن تصح فيه الأبدان ، ويجود هضمها وتنتشر الحرارة الغريزية فيها ويصفو الروح الحيوانى لاعتدال الهواء وصفائه ومساواة ليله ونهاره وغلبة الدم والهواء المعتدل هو الذى لا يحس فيه ببرد ظاهر ولا حر ، ولا رطوبة ، ولا يبس ولا يكون فى نفسه صافيًا نقيًا، وتقوى فيه الروح الحيوانى لهذا السبب، وتصح الأبدان ، ويكثر نشاط الحيوان وتنمى الأشياء وتتولد، وإذا طلبنا بأرض مصر مثل هذا الهواء لم نجده فى وقت من السنة إلا فى أمشير(٢) وبرمهات(٣) ، وبرمودة(٤) ، وبشنس(٥). وذلك عندما تكون الشمس فى النصف الأخير من الدلو والحوت والحمل والثور. فإنها تجد فى هذا الزمان بأرض مصر أيامًا معتدلة نقية صافية، وهى الأيام التى تكون الشمس فيها نقية من الغيوم والهواء ساكنًا لا يتحرك إلا أن يكون ذلك ، برمودة وبشنس(٦) ، فإنه يحتاج إلى أن يهب ريح

(١) جاءت فى نسخة دار الكتب : طبعة الاعتدال» .
(٢) أمشير : أو أمسير (وهو شباط) النجوم الزاهرة ٣٤/١ والكرملى ، المساعد ٤٦/٢ .
(٣) برمهات : (آذار) النجوم الزاهرة ٣٤/١ .
(٤) برمودة : (نيسان) النجوم الزاهرة ٣٤/١ .
(٥) بشنس : (آيار) النجوم الزاهرة ٣٤/١ وانظر ابن ظهيرة ١٤٠ وسلم العروج اللامائى ١١٠ .
(٦) فى هذين الشهرين مع شهر بؤونة (حزيران) النجوم الزاهرة ٣٥/١ .

الشمال لتعدل ببردها كثرة حر الشمس، وفى هذا الزمان تكثر حركة الحيوان ويسفه ويتحسن صواته، وتروق الأشجار، ويعقل الزهر، وتقوى القوة المولدة، ويغلب كيموس الدم[١] .

وظاهر أن هذا الفصل يتقدم زمانه الطبيعى بمقدار ما ينقض عن آخره وعلة ذلك قوة حرارة هذه الأرض، وقد تعرض فى أول هذا الفصل أيام شديدة البرد وذلك فى أمشير إذا هبت ريح الشمال، وكانت الشمس غير نقية من الغيوم، وعلة ذلك دخول فصل الربيع فى فصل الشتاء، فإذا هبت ريح الشمال ردت ببردها الهواء فاعادته بعد الاعتدال إلى البرد ولكثرة ما يصعد من الأرض فى هذا الزمان من البخار الرطب يترطب الهواء ويعود إلى حاله فى فصل الشتاء وربما يرد هذا الهواء من هبوب أرياح آخر فأن ريح الجنوب التى هى أشد الرياح حرارة إذا هبت فى هذا الزمان اكتسبت برودة من الأرض والماء الذين قد بردهما هواء الشتاء. فإذا مرت بشىء بردته ببرودتها العرضية حتى إذا دام هبوبها أياماً كثيرة متوالية عادت إلى حرارتها فاسخنت الهواء، وأحدثت فيه يبساً[٢]، والدليل على أن برد ريح الجنوب ويعرفها المصريون (بالمربى) يتولد من برد مياه مصر وأرضها لا شىء طبيعى لها أنها لا تجمع لها فى الجو فى

(١) كيموس الدم : خلاصة من الغذاء التى تجرى فى العروق : الشجرى مخطوطة حقائق أسرار الطب ٧ .

(٢) سقطت من نسخة المتحف العراقى .

أيام هبوبها الضباب الذى يجتمع من تحليل الحرارة للبخار الرطب بالنهار، وجمع البرودة له بالليل فحرارة ريح الجنوب يعوق البرودة عن جمعه (وتبدده)[1] فى الهواء، وإذا دام هبوب هذه الريح اسخنت الماء والأرض، وعادت إلى طبيعتها فى الحر، وإذا كان فصل الربيع يتقدم زمانه الطبيعى، ويختلف هذا الاختلاف وهو فى الأصل بمصر يختلف بكثرة استحالته وما يرقى إليه من البخار، فما ظنك بغيره من الفصول، ولذلك كثرت فيه الرياح. وأمر الأطباء فيه سقى الأدوية المسهلة إلى أن يستقر أمره فى شمس الحمل مع الثور، ثم يدخل فصل الصيف منه آخر بشنس، وبؤونة، وأبيب[2]، وبعض مسرى[3]. عندما تكون الشمس فى الجوزاء والسرطان والأسد، وبعض السنبلة، ويشتد الحر واليبس فى هذا الزمان وتجف الغلات وتنضج الثمار ويجتمع من أكلها فى الأبدان كيموسات ردية، وإذا نزلت الشمس بالسرطان أخذ النيل فى الزيادة والفيض (على)[4] الأرض يتغير مزاج الصيف الطبيعى بكثرة ما يرقى إلى الهواء فى بخار الماء ويوجد فى أهل هذا الفصل عندما تكون الشمس مستورة بالغيوم أو يكون ريح الشمال هابة ولهذا يغلط كثير من الأطباء فيسقى المسهل فى هذا الزمان (لظنه أن)[5] فصل الربيع لم

(١) نبذذة : هكذا فى الأصل . (٢) أبيب : (تموز) النجوم الزاهرة جـ١/٣٥ .
(٣) مسرى (أب) النجوم الزاهرة جـ ١/٣٥ .
(٤) سقطت من نسخة المتحف العراقى . (٥) سقطت من نسخة المتحف العراقى .

يخرج إلا أن من كان منهم أحذق فهو يختار ما كان من هذه الأيام، أكثر حرارة والأكثر لا يشعرون البتة بهذه الحال لكن يعطون الأدوية بجهل وسخافة عقل ويتعلقون بكون الشمس فى الجوزاء، ويتركون قول الفاضل جالينوس، إن الربيع معتدل وفي الصيف يكثر فيض النيل وظاهر أن هذا الفصل يتقدم دخوله الزمان الطبيعى بقدر ما يتقدم آخره ، وأنه كثير الاضطراب بكثرة ما يرقى إليه من بخار الماء فلولا استمرار أبدانهم على هذا الاختلاف وشاكلهم لهذه الحال لحدثت فيهم الأمراض التى ذكر أبقراط إنها تحدث إذا كان الصيف رطبًا، ثم يدخل فصل الخريف وطبيعته يابسة من الضعف من مسرى ثم توت[1] وبابه[2] وبعض أيام من هتور[3] وذلك عندما تكون الشمس فى آخر برج السنبلة، والميزان والعقرب، فتكمل زيادة النيل فى أول هذا الفصل ويطلق على الأرضين فيطبق أرض مصر الماء وترتفع منه فى الجو بخار كثير فينتقل مزاج الخريف عن اليبس إلى الرطوبة حتى إنما ربما وقعت فيه المطر وكثر الغيم فى الجو ويوجد فى أول هذا الفصل أيام شديدة الحر لأنها على الحقيقة صيفية، فإذا نقى الجو من البخار الرطب عادت إلى طبيعتها من الحرارة، وفيه أيام شديدة الشبه بأيام الربيع، يكون عندما

(١) توت : (أيلول) النجوم الزاهرة جـ ١/٣٥ .

(٢) وبابه : تشرين الأول النجوم الزاهرة جـ ١/٣٥ .

(٣) هتور : تشرين الثانى النجوم الزاهرة جـ ١/٣٥ .

يساوى الليل النهار وترطب الماء يبس الهواء، ويشتد فى هذا الفصل اضطراب الهواء بكثرة ما يأتى إليه من البخار الرطب فيكون مرة حاراً وأخرى رطباً بارداً، ومرة يابساً وأكثر أوقاته تغلب عليه الرطوبة، ولا يزال كذلك يتمزج حتى تغلب عليه رطوبة الماء فى آخر الأمر .

ويصطاد فى أيام الخريف من النيل أسماك كثيرة جداً يولد أكلها فى الأبدان أخلاطاً لزجة وكثيراً ما يستحيل إلى الصفراء إذا صادفته فى البدن خلطاً صفراوياً فمن أجل هذه الأشياء تضطرب فى الأبدان الروح الحيوانى، وتهيج الأخلاط ويفسد الهضم فى البطون والأوعية والعروق ويتولد من ذلك كيموسات رديئة كثيرة الاختلاف بعضها مرة صفراء وبعضها مرة سوداء وبعضها بلغم لزج وبعضها خلط خام[1] وبعضها مرة محترقة، وكثيراً ما يتركب من هذه الأشياء فتكثر الأمراض حتى إذا تصرف النيل فى آخر الخريف وانكشفت الأرض وبرد الهواء، وكثرت الأسماك، واحتقن البخار وكثر ما يرتفع من الأرض من العفونة واستحكم عند ذلك وجود العفن وفساد النظم وتزايدت الأمراض (ولولا ألف أهل هذه الأرض لهذه الأشياء لكان ما يحدث فيهم من الأمراض أكثر)[2] .

(١) خلط خام : جسم رطب سيال يستحيل إليه الغذاء (القانون جـ ١٣/١) .

(٢) سقطت من نسخة المتحف.

ثم يدخل فصل الشتاء وطبيعته باردة من النصف الأخير من هتور ثم كيهيك[1] وطوبة[2] ، وذلك عندما تكون الشمس فى القوس[3] والجدى[4] وبعض الدلو[5]، وذلك أقل من ثلاثة أشهر والعلة فى هذا قوة حرارة هذه الأرض والأبدان مضطربة ويتم انكشاف الأرض فى أول هذا الفصل وتحرث وتعفن بالجملة لكثرة ما يلقى فيها من البزور وما فيها من أزبال الحيوان وفضولها ولأنها سخيفة، وهى كالحماة فى هذا الزمان . فتولد فيها من أنواع الفار، والدود، والنبات والعشب[6] وغير ذلك ما لا يحصى كثرة وينحل منها فى الجو أبخرة كثيرة حتى يصير الضباب بالغدوات ساتر للأبصار عن الألوان القريبة. ويصاد أيضًا من الأسماك المحبوسة فى المياه المخزونة شىء كثير وقد داخلها العفن لقلة جريها وحركتها، فيتولد أكلها فى الأبدان فضول كثيرة لزجة شديدة الاستعداد للعفن فتقوى الأمراض فى أول هذا الفصل حتى إذا اشتد

(١) كيهك : كانون الأول النجوم الزاهرة جـ ٣٥/١ .

(٢) طوبة : كانون الثانى النجوم الزاهرة جـ ٣٥/١ .

(٣) القوس : برج من أبراج السماء (المنجد ٦٦٢) .

(٤) الجدى : برج من أبراج السماء ملاصق للدلو (المنجد ٨٢) .

(٥) الدلو : برج فى السماء سمى به تشبيهًا بالدلو (المنجد ٢٢٤) .

(٦) العشب : بقل ويقال هذا النبات عشبه ولا يقال هذا النبات بقلة، والعشبة نبات رخو تظل أجزاؤه الهوائية ومنها ساقه خضراء دائمًا ثم تموت تلك الأجزاء فى كل سنة. وتكون العشبة من حيث مدة حياتها (حولية) أو محولة أو معمرة والعشبة المعمرة تمكث حية من سنة إلى أخرى بأجزائها الأرضية (معجم المصطلحات العلمية جـ ٤٤٢/٤) .

البـرد وقـوى الهـضم فى الأبدان واسـتـقـرت الهـواء على شيء واحـد، وعادت الحرارة الغريزية إلى الداخل، وتطبقت الأرض بالنبات، وسكنت عـفونتـها، صحت عند ذلك الأبدان وهكذا يكون فى آخر كيـهك وفى طوبة فقـد استبـان بما قلنا أن الفـصـول بأرض مـصـر هى أيضًا كثيـرة الاختلاف، وأن أردئ أوقات السنة كلها عندهم وأكثرها أمراضًا مع آخر الخريف وأول الشتاء وذلك فى شـهر هتور وكيـهك فإذا كان اختـلاف الفصـول شاكلاً لما عليه أرضهم من الرداءة فتضر الفصـول بالأبدان فى أرض مـصـر أقل منهـا فى البلدان الأخـر، إذا اختلفت هذا الاختـلاف، واستبـان أيضًا أن السبب الأول فى ذلك هو مـد النيل فى أيام الصيف وتطبيعه الأرض فى أيام الخريف بخلاف ما عليه مياه الأنهار فى المعمورة كلها فأن هذه إنما تمد فى أخص الأوقات بالرطوبة وهى الشتاء والربيع ولما كـان النيل هو السبب الأعظم فى عـمارة أرض مـصـر (وجـمـيع مـا فيـهـا)[1] ، رأى المصريون القـدماء وخاصة الذين كانوا على عـهد - قلطيانوس - [2] الملك أن يجعلوا أول السنة أول الخريف عند استكمال النيل الحاجة فى الأمر الأكثر، فجعلوا أول شـهورهم، توت، ثم بابه ثم هتور ، وعلى هذا الولاء يحسب المشهور من ترتيب هذه الشهور.

(١) سقطت من نسخة المتحف العراقى .

(٢) قلطيانوس : أحد ملوك الروم المعروفين بالقيـاصرة، ملك فى منتصف سنة ٥٩٥ من سنى الأسكندر، وكان من غير بيت الملك وبدأ قلطيانوس يعرف تاريخ القبط ويسمى تاريخ القبط بتاريخ قلطيانوس (انظر خطط المقريزى جـ ٢٦٢/١) .

٥- في أسـباب الوبــاء

أما أمراض مصر البلدية فقد ذكرنا من أمرها وأمر أسبابها ما فيه كفاية، وظهرت من ذلك أن أكبرها هى الأمراض الفضلية التى تشوبها صفراء وخام على أن باقى الأمراض تحدث عندهم بسرعة وقرب وخاصة فى أول الخريف وأول الشتاء. وأما الأمراض الوافدة فإلى الآن لم نذكر شيئًا من أمرها .

ومعنى المرض الوافد أن يعم خلقًا كثيرًا فى بلد واحد (وزمان واحد)[١] ومنه نوع يقال له الموتان[٢] وهو الذى يكثر معه الموت وحدوث الأمراض الوافدة تكون عن أسباب كثيرة تجمع فى الجملة فى أربعة (وهى أجناس)[٣] تغير كيفية الهواء وكيفية الماء وكيفية الأغذية وكيفية الأحداث النفسانية، والهواء تتغير كيفيته على ضربين، أحدهما تغيره الذى جرت به العادة، وهذا لا يحدث مرضًا (وافدًا)[٤] وليست اسميه تغييرًا ممرضًا، والثانى تغيره الخارج عن مجرى العادة، وهذا هو (الذى)[٥] يحدث المرض الوافد، وكذلك الحال فى الباقية فإنها إما أن

(١) وردت فى نسخة دار الكتب .

(٢) سبق الكلام عن الموتان ، وهو أن الأمراض إذا عمت كثيرًا من الناس إن كانت مهلكة سمى (موتان) ولكن جاء فى المنجد ٧٧٨ أن الموتان وباء الحيوان وليس الإنسان وكذلك فى معجم الشهابى فى مصطلحات العلوم الزراعية ٨٨٧ .

(٣) لم ترد فى نسخة دار الكتب .

(٤) سقطت من نسخة دار الكتب .

(٥) سقطت من نسخة المتحف العراقى .

تتغير على العادة فلا يحدث مرضًا، وأما أن يكون تغيرها تغيرًا خارجًا عن العادة فيحدث المرض الوافد، وخروج تغير الهواء عن عادته يكون إما أن يسخن أكثر أو يبرد أو يرطب أو يجفف أو يخالطه حال عفنية، والحال العفنية إما أن تكون قريبة وإما بعيدة، فإن أبقراط وجالينوس يقولان ليس يمنع مانع من أن يحدث ببلاد اليونانيين مرض وافد (عن عفونة اجتمعت في بلاد الحبشة وتراقت إلى الجو، وانحدرت عن اليونانيين، فأحدثت فيهم المرض الوافد)[1] .

وقد يتغير أيضًا مزاج الهواء عن العادة بأن يصل وفد كثير قد انهك أبدانهم طول السفر وساءت أخلاطهم فتخالط الهواء منها شيء كثير ويقع الوباء في الناس ويظهر المرض الوافد. والماء أيضًا قد يحدث المرض الوافد إما بأن يفرط بمقداره في الزيادة أو النقصان أو يخالطه حال عفينة، ويضطر الناس إلى شربه، ويتعفن به أيضًا الهواء المحيط بأبدانهم وهذه الحال تخالطه، إما قريبًا وإما بعيدًا بمنزلة ما يمر في جريانه بموضع حرب قد اجتمع فيها من (جييف)[2] القتلى شيء كثير، أو بمياه نقائع عفنية فتحدرها معه، ويخالطها جسمه والأغذية، تحدث المرض الوافد، أما إذا لحقها اليرقان[3] وارتفعت أسعارها، واضطر أكثر

(١) سقطت من نسخة دار الكتب .

(٢) سقطت من نسخة دار الكتب .

(٣) اليرقان وهو اصفرار الجلد والعينين نتيجة ازدياد نسبة خضاب الصفراء في الدم، وأول ما يظهر اليرقان بالعينين ، وقد يخفى على مخالطي المريض إذا ظهر تدريجيًا بحيث تصعب عليهم ملاحظته، واليرقان عرض لعدد من الأمراض الكبد والمرارة والدم (انظر الحاوي للرازي جـ ١٤٢/٧) والموسوعة الحديثة ٢٠٠٢ والمعجم الطبي الموحد ٩٨ .

الناس إلى تغيير مأكله، وأما إذا أكثر الناس منها فى وقت واحد كالذى يكون فى الأعياد، وقد كثر فيهم التخم ويمرضون مرضًا متشابهًا وإما من قبل فساد مرعى الحيوان الذى يؤكل أو فساد الماء الذى يشربه هذا الحيوان، والأحداث النفسانية تحدث المرض الوافد متى حدثت فى الناس خوف عام من بعض الملوك فيطول سهرهم وتفكيرهم فى الخلاص منه، وفى وقوع البلاء فيسوء هضم أجوافهم وتتغير حرارتهم الغريزية، وربما اضطروا إلى حركة عنيفة من قبل هذه الحال أو يتوقعون قحط بعض السنين، فيكثرون الحركة والاجتهاد فى إدخار الأشياء، ويكثر غمهم بما سيحدث.

فجميع هذه الأشياء تحدث فى أبدان الناس المرض الوافد متى كان المتعرض لها خلق كثير فى بلد واحد، ووقت واحد فظاهر أنه إذا كثر (المرض)[1] فى وقت واحد فى مدينة واحدة، ارتفع فى أبدانهم بخار كثير فيتغير أيضًا مزاج الهواء، فإذا صادف ذلك (بدنًا)[2] مستعدًا أمرضه وإن كان صاحبه لم يتعرض لما تعرض إليه الناس فى هذه الحال مثاله أن يكون قد حدث فى الناس مرض وافد من قبل ارتفاع السعر وعدم الطعام ويكون فيهم لمن لم يتغير عادته فيما يأكل ويشرب فإذا ارتفع إلى بدنه بخار عفونة المرض، وكان بدنه مستعدًا وقع هو أيضًا فى

(١) سقطت من نسخة المتحف العراقى .
(٢) سقطت من نسخة دار الكتب .

المرض، فإذا قد قدمت هذه الأشياء فالأمراض الوافدة إذا تحدث بأرض مصر إما عن فساد لم تجربه العادة تعرض الهواء سواء كان مادة هذا الفساد من نفس أرض مصر أو من البلاد التى تجاورها كالسودان، والحجاز، والشام، وبرقة[1] . أو تعرض للنيل أن يفرط زيادته فكثرة زيادة الرطوبة والعفن لا تقل زيادة جداً فيجف الهواء عن مقدار العادة ويضطر الناس إلى شرب مياه رديئة أو يخالطه عفونة تحدث عن جرب يكون بمصر أو ببلاد السودان (وغيرهما يموت فيها خلق كثيراً ويرتفع بخار جيفهم فى الهواء فيعقمه، ويتصل عفنه إليهم أو يسيل الماء ويحمل معه العفن) .

ويعلو السعر أو يلحق الغلات آفة أو يدخل على الكباش ونحوها مضره (أو يلحق الناس فوق عام أو قنوط. فكل واحدة من هذه الأسباب)[2] تحدث بأرض مصر مرضًا وافداً يكون قوته بمقدار قوة السبب المحدث له ، وإن كان المحدث له أكثر من سبب واحد كان ذلك المرض أشد، وأقوى وأسرع فى القتل كما عرض بمصر منذ سنين، فإنه وقع بها حروب عظيمة[3] ، قتل فيها من رجال العدو خلق كثير ،

(١) برقة : اسم صقع كبير فى شمال أفريقية، واسم مدينتها انطابلس وتفسيره الخمس مدن قال عنها بطليموس إن طولها ثلاث وستون درجة وعرضها ثلاث وثلاثون درجة وعشر دقائق، وبين الاسكندرية وبرقة مسيرة شهر، وقيل من الفسطاط إلى برقة مائتان وعشرون فرسخًا، ومن برقة إلى القيروان مائتان خمسة عشر فرسخًا (معجم البلدان جـ ٣٨٨/١) وكانت برقة فى العهد العربى يمر بها من الفسطاط إلى القيروان (دائرة المعارف الإسلامية م ٧٤/٧) .

(٢) سقطت من نسخة المتحف العراقى . (٣) سقطت من نسخة المتحف العراقى .

وعرض لأهل مصر خوف عظيم من العدو، ومن الغلاء، ثم كانت زيادة (النيل)[1] زيادة خارجة العادة فى الزيادة والنقصان معًا واختلط به عن عفونة الموتى شيء كثير وتعفن الهواء المحيط بهم من عفن هذه الأشياء وكثر القحط، فحدث فيهم الموتان ومات به نحو ثلث الناس، وهذا المعنى الذى ذكرناه ، أعنى خروج هذه الأشياء عن مجاريها فى كل سنة ذهب على ابن الجزار حتى جعل نفسه ما يوافق مزاج مصر سببًا لوقوع (المرض)[2] الوافد .

---

(١) فقد خربت مدينة الفسطاط بسبب الشدة العظمى التى كانت فى خلافة المستنصر بالله الفاطمى، وسبب هذه الشدة العظمى فأن السعر ارتفع بمصر سنة ٤٤٦ ونبع الغلاء وباء واستمر ذلك إلى سنة أربعمائة وتسع وخمسين فقويت شوكة الأتراك، وزاد طمعهم وأخذوا بطالبون المستنصر بالزيادة، وضاقت أحوال العبيد وقل مال السلطان، وعم الغلاء والوباء الشديدين، والنيل يمد وينزل فلا يجد من يزرع، وأكلت الكلاب والقطط ثم تزايد الحال حتى أكل الناس بعضهم بعضًا (خطط المقريزى جـ١/٣٣٥ و٣٣٧) بالاضافة إلى عدم الاستقرار فى تصرفات خلفاء الفاطميين ، هذا من الناحية السياسية والتى أثرت على بعض الفئات الاجتماعية، وكان الشعب المصرى فى الحقبة التى عاشها ابن رضوان يؤمن أشد الإيمان بفعل أحكام النجوم فى اكتشاف الطالع، وكانت هذه المهنة أو ذلك من المهن الكثيرة الرواج، وكانت فعلاً مصدر معاش ابن رضوان فى أول نشأته (كمال السامرائى : مختصر تاريخ الطب العربى ١٠ و ٣٧).

(٢) سقطت من نسخة دار الكتب .

٦- فى إعادة ما تقدم على طريق الجملة وزيادة فى شرح أمر الأسباب الستة المحيطة بالصحة والمرض

مزاج أرض مصر حار رطب بالرطوبة الفضلية وما قرب من الجنوب من أرض مصر كان أسخن وأقل عفونة فى ماء النيل مما كان فيها فى الشمال ولاسيما من كان فى شمال الفسطاط مثل أهل البشمور[١] فأن طباعهم أغلظ والبله عليهم أغلب وذلك أنهم يستعملون أغذية غليظة جداً ويشربون من الماء الردئ، فأما الاسكندرية وتنيس وأمثال هذه لقربها من البحر وسكون (الحرارة)[٢] والبرد عندهم وظهور الصبا فيهم مما يصلح أمرهم ويرق طباعهم ويرفع هممهم فليس يعرض لهم ما يعرض لأهل البشمور من غلظ الطبع والحماوية، وإحاطة البحر بمدينة فليس يعرض لهم ما يعرض لأهل البشمور من غلظ الطبع والحماوية، وإحاطة البحر بمدينة تنيس يوجب غلبة الرطوبة عليها. وتأنيث أخلاق أهلها، واستبان أيضاً أن أرض مصر ذات أجزاء كثيرة يختص كل جزء منها

(١) البشمور : جاء ذكر بحيرة بشمور بالقرب من الفسطاط، تحيط بها المياه وهى كثيرة الصيود من السموك ولم أعثر على اسم مكان أو مدينة فى مصدر آخر (صورة الأرض ١٢١) .

(٢) سقطت من نسخة المتحف العراقى .

بحكم غير حكم الآخر، وأن ما ذكره ابن الجزار من أسباب (وباء أرض)[1] مصر ليس بصحيح وأن سبب ذلك خروج ما ذكرناه عن العادة وأن أبدان المصريين وسائر ما عندهم سخيفة سريعة الوقوع فى الأمراض وأن آخر الخريف وأول الشتاء أشرأوقات السنة وأكثرها مرضًا، وأن المدينة الكبرى هى أردئ حالاً من غيرها فى سرعة الوقوع فى الأمراض، وأن أمراضهم البلدية كثيرة، وأكثرها الأمراض الفضلية، والعفونة التى معها صفراء أو بلغم وإذا كانت هذه الأشياء كما وصفنا فينبغى أن تزيد فى الأسباب الستة تلخيصًا، فنقول : إن الهواء المعتدل يحسن فيه حال مزاج البدن، ويجود الهضم لأن الروح الحيوانى الذى به فينا تصفو وتنتشر الحرارة الغريزية (فى البدن)[2] على اعتدال، والهواء الذى خرج عن الاعتدال يغير الأبدان الذى لم تعتده ولا يضر الأبدان التى قد اعتادت، وكذلك القول فيما يؤكل ويشرب، فإن كل قوم قد ألفوا أغذيتها بأعيانها (ونشأت)[3] عليها أبدانهم، فأن عرض لهم ما يقطعهم عنها وقعوا فى المرض. وأيضًا فالرياضة المعتادة قد تكون سببًا للصحة بتحليلها ما يجتمع فى الأبدان من الفضول والبخار الدخانى، ومن قد اعتادت أعضاؤه الرياضة أصلب وأشد قوة، ولذلك الفلاحون وسائر الفعلة[4] أشد قوة وأقوى نفسًا من أهل الدعة والترفة،

(١) سقطت من نسخة المتحف العراقى .

(٢) سقطت من نسخة المتحف العراقى .

(٣) نشت : هكذا فى الأصل .

(٤) الفعلة : العمال والمصدر فعل، لغة الحدث والعمل والحركة (معجم المصطلحات العلمية ٥٠٦) .

وفضول أبدانهم أقل، فأما السكون فأن المعتدل منه يفعل أيضًا فى الأبدان صحة وقوة والسكون الكثير لا يدع البخار ينحل فيحقن الفضول ويحدث فى الأبدان رداءة . ولهذا يجعل الأبدان أكثر استعداداً لقبول الأمراض، فأن أهل السكون والدعة من ساكنى مصر أسرع وقوعًا فى الأمراض والرياضة المفرطة أيضاً تضر بالأبدان لتسخيفها إياها وتوليدها الفضول الدخانية فيها. وأما النوم واليقظة فإنهما إذا اعتدلا أحدثا الصحة وحفظاها، إذ النوم يجود به الهضم لغور الحرارة إلى داخل، واليقظة (تنحل بها فضول الهضم لظهور الحرارة إلى خارج والنوم المفرط يبرد البدن ويكثر فيه الفضول)[1] واليقظة المفرطة تجفف وتسيء الهضم، والقول فى الاحتقان[2] والاستفراغ كذلك، فأنه إذا كان ما يحتقن فى البدن من الفضول أشياء كثيرة أفسد فيها الهضم وأسرع إليها العفن ، وإن كان الذى يستفرغ أكثر مما يحتقن، وجب ضرورة أن تكون مسلك الزيادة من نفس أخلاط البدن التى لا بد له منها، وإذا خرجت عنه حدث فيه المرض فمعدل إذاً ما يحتقن يكون مساوياً لما يستفرغ.

---

(١) لم ترد فى نسخة دار الكتب .

(٢) الاحتقان : احتقن الدم اجتمع فى الجوف (لسان العرب م ١/٦٨٥) .

إلا أن جالينوس والأطباء يقولون : إنه يجتمع فى فصل الشتاء فى الأبدان رطوبات كثيرة لزجة بلغمية وأوساخ تلجج فى نفس المعدة والأوعية والعروق، كما يلجج من جريان الماء فى القنى[1] (والترع)[2] رطوبة لزجة وسخة، فإذا دخل الربيع ذابت تلك الأخلاط البلغمية اللزجة، فزادت كمية الدم وعفنتها الأوساخ التى معها فيحتاج من أجل ذلك إلى أن يستفرغ هذه قبل أن يحل الدم ويغسل الأوعية والعروق من الأوساخ اللاحجة[3] فيها بالأدوية المسهلة، وكذلك أيضًا يجتمع فى الأبدان ويلحج فى قعر المعدة والأوعية والعروق فى الصيف أخلاطًا حارة وأوساخ رديئة الكيفية، فإذا دخل الخريف وتغير الهواء، هاجت هذه واحترق كثير منها، فيحتاج من أجل ذلك أيضًا أن يستفرغ هذه قبل أن يحدث فى البدن رداءة، فوجب من هذا أن يستفرغ الأبدان فى الربيع والخريف فى كل سنة كيما تنظف الأوعية وأوساخها، ويغسلها من الأشياء الرديئة التى قد لحجت فيها، ويجب أن يكون نوع الأدوية التى تستفرغ بها فى الخريف، فأن الأدوية التى (ينبغى أن)[4] يستفرغ بها فى

(١) القنى : جمع قناة وهى الابار التى تحفر فى الأرض متتابعة ليستخرج ماؤها ويسيح على وجه الأرض (لسان العرب م ١٧٨/٣) .

(٢) جاءت (البرابخ) فى نسخة دار الكتب ، والترع هى الصحيحة لأن كلمة البرابخ تعنى مجرى من الخزف للماء وما شاكله (المنجد ٣١) .

(٣) اللاحجة : النابتة فيه والأزمة فيه (لسان العرب م ٣٤٧/٣) .

(٤) سقطت من نسخة المتحف العراقى .

الربيع يحتاج أن يكون تسهل مقداراً كثيراً من البلغم والرطوبات، اللزجة والتى يستفرع بها فى الخريف يحتاج أن تكون تسهل مقداراً كبيراً من المرة الصفراء والأوساخ الحادة .

من أجل ما قدمنا ذكره يجب أن تكون أدوية الخريف أيضاً يستفرع الرطوبة بأرض مصر خاصة، لكثرة ما يتولد فى هذا الزمان من الرطوبات فى أبدان الناس، فهذان الاستفراغان اللذان أحدهما فى الربيع والاخر فى الخريف يساويان ما يحتقن فى الأبدان من الأوساخ فيما بينهما وأما الأحداث النفسانية كالغضب والحزن والسرور، فإنهما إذا لم تفرط لا تحدث مرضاً .

وينبغى أن يكثر أهل مصر الفرح والسرور، فأن ذلك يقول حرارة أبدانهم الغريزية فيجود الهضم ويقل ما يحتقن فيها فقد ظهر مما قلا أن كل واحد من الأسباب الستة، تحدث الصحة وتحفظها، إذا كان على ما ينبغى فى كيفيته وكميته، وإذا خرجت عما ينبغى لها أحداث المرض وحفظه .

فإذاً أمراض مصر البلدية والوافدة وغيرها يزيد وينقص بحسب تعرض الإنسان لهذه الأسباب وإهماله إياها، وتفقده لها، وذلك أن من يكثر أكل الأغذية المولدة للسوداء يستعد بدنه للأمراض السوداوية، وكذلك القول فى الباقية. وقد تغير هذه الأسباب الستة مزاج الإنسان وسنه وسحنته وعادته، والوقت الحاضر من أوقات السنة، ومزاج الذكر والأنثى، وفيما قلنا من الأشياء التى احتجنا إلى تقديمها كفاية .

٧- فى الحيلة الكلية فى حفظ الصحة و مداواة الأمراض

قد علمنا الفلاسفة والأطباء هذه الحيلة بأن امروا أن نحتذى بالطبيعة فى أفعالها فى البدن فى ذلك قول أبقراط : إن كان ما يستفرع من البدن عند استطلاق البطن والقئ اللذان يكونان طوعًا فى النوع الذى ينبغى أن يشفى منه البدن نفع ذلك وسهل احتماله ، وإن لم يكن كذلك كان الأمر على الضرر فينبغى أن ينظر أيضًا فى الوقت الحاضر من أوقات السنة، وفى البلد وفى السن وفى الأمراض، هل يوجب استفراغ ما هممت باستفراغه أم لا ؟

وقال أيضًا إنما ينبغى أن يسقى من الدواء ما يستفرغ من البطن من النوع الذى إذا استفرغ من تلقاء نفسه، نفع استفراغه، وأما ما كان استفراغه على خلاف ذلك فينبغى أن يقطعه ، وقال أيضًا الأشياء التى ينبغى أن تستفرغ يجب أن تستفرغ من المواضع التى هى إليها أميل بالأعضاء التى تصلح لاستفراغها.

وقال: ما كان من الأمراض تحدث من الامتلاء فشفاؤه يكون (بالاستفراغ)[1]

(١) الاستفراغ: القئ : حركة من المعدة على دفع منها لشيء فيها من طريق الفم، ومنه حار مقلق كما فى الهيضة (القانون جـ ٢/٣٣٦) كما يعرض لمن يشرب دواء مقيئًا ومنه ساكن كما يكون للممعودين انظر المصدر نفسه عن علاجات القيء .

(وما كان منها يحدث من الاستفراغ)[1] فشفاؤه يكون بالامتلاء وشفاء سائر الأمراض يكون بالمضادة .

وقال فى حفظ الصحة : ينبغى أن يحفظ كل شيء على ما هو عليه وإذا تأملنا جميع ما سمعناه من أبقراط فى هذه وغيرها وجدناه يشتمل على ما اجتمع عليه الفلاسفة، وفرقه أصحاب القياس من الأطباء من أنه ينبغى أن نحتذى فيما نورده على الأبدان بما تفعله الطبيعة فيها، فكما أن الطبيعة التى جعلها الله عز وجل قائمة بتدبير البدن (وتحفظ)[2] بأذنه وتأثيره تعالى، تحفظ على البدن صحته بما يغذيه به من الأغذية وبما يخرج عنه من فضوله فى كل يوم بالتنفس، والعرق، والبول، والقيء، والبصاق، والرعاف[3]، ودم الحيض، والبواسير[4] من الفضول الموافق، وفى الوقت الموافق، وبحسب مزاج البدن والوقت

(١) سقطت من نسخة دار الكتب .

(٢) سقطت من نسخة المتحف العراقى .

(٣) الرعاف : غلبة من الدم العالى بقوة وربما كان الانفجار عن شبكة عروق الدماغ وشرايينه وهو غير قابل فى الأكثر للعلاج وأكثره يكون عقيب حدوث صداع والتهاب ومرض حاد أو عقيب سقطة أو ضربة (ابن سينا جـ١٦٣/٢) .
أو هو نزف الأنف، تتلف جدار الأوعية الدموية الدقيقة بالأنف بسهولة وبكثرة من أقل تهيج أو أصابة ، أو نزلة برد (الموسوعة الطبية جـ ٩٦١/٧) .

(٤) البواسير : هى لحوم زائدة فى المقعدة أو قروح فى المستقيم ومنها كأنها نفاخات ومنها ناتئة ومنها غائرة (القانون جـ ٤٧٨/٢) .

الحاضر، من أوقات السنة، والبلد، والسن، والسحنة، والعادة، كذلك سبيلنا أن نفعل فيما يورده البدن من الأغذية والأدوية وسائر ضروب العلاج .

وكما أن الطبيعة أيضًا تستفرغ الخلط المؤدى من العضو الموافق (كالذى يكون فى أيام البحران)[1]، وذلك أنا نظرنا فى حال العليل ومزاجه وسخنته ومزاج بلده، (والوقت الحاضر وطبيعة المرض وأسبابه وأعراضه)[2] ، وتأملنا جميع ما نحتاج إليه. تهيأ لنا حفظ صحته، وأن المؤدى عنه وكذلك اضطرارنا إلى معرفة طبائع الأغذية والأدوية والتشريح، وسائر ما ينظر فيه من أصحاب القياس من الأطباء والذى يحتاج أن يحصيه الطبيب (ويحفظه)[3] ويعرفه فى مداواة كل مرض .

وفى حفظ الصحة خمس وعشرون شيئًا بعد جزيئات أخر كثيرة[4] .

الأول : مزاج البدن .

الثانى : الأمراض البلدية .

الثالث : الوقت الحاضر .

(١) سقطت من نسخة دار الكتب .

(٢) سقطت من نسخة المتحف العراقى .

(٣) سقطت من نسخة المتحف العراقى .

(٤) استخدم الناسخ أ ، ب فى نسخة دار الكتب بدلاً من الأول، الثانى كما جاء فى نسخة المتحف العراقى .

الرابع : مزاج ذلك الوقت .

الخامس : المرض الوافد .

السادس : المرض الموجود فى البلد وفى أى عضو هو .

السابع : سبب المرض .

الثامن : مقدار قوة المرض .

التاسع : أعراض المرض .

العاشر : قوة الأعراض .

الحادى عشر : مقدار قوة العليل .

الثانى عشر : مزاج العليل .

الثالث عشر : سن العليل .

الرابع عشر : مزاج العضو الذي فيه المرض وفعله وشكله ووضعه .

الخامس عشر : سحنة العليل .

السادس عشر: طبيعة العليل من الذكور والإناث .

السابع عشر : عادته فى أيام الصحة والمرض .

الثامن عشر : طبيعة الأغذية والأدوية .

التاسع عشر : عادته منها فى أيام صحته ومرضه .

عشرون[1] : ما ينبغى للطبيب أن يختار منها فى أوقات الصحة وأوقات المرض.

الحادى والعشرون : كيف ينبغى أن يكون العلاج .

الثانى والعشرون : أى وقت موافق فى العلاج .

الثالث والعشرون : أى عضو موافق فى إيراد العلاج .

الرابع والعشرون : أن يكون المريض ومن يحضره على وفاق الطبيب.

الخامس والعشرون : أن يكون ما يعرض من خارج موافقاً .

فهذه الأشياء التى يقتدى بها الطبيب على معرفة الطبيعة، والقيام بخرقها فى حفظ الصحة، ومداواة المرضى، والوقوف عليها، والعمل بها، ليس تسهيل الإحاطة بها صعبة عسرة تحتاج إلى تعب كثير وعناء، ودربة طويلة فى طلبها، والرياضة فيها ويترك المشاغل عنها، والإهمال لشىء منها كبيرها وصغيرها، دقيقها وجليلها، فأنى لست أعرف إلى اليوم من يقدم هذه الضمانات من الأطباء، ولا أعرف من هذه المدينة العظيمة من يقوم بأمزجة أهل مصر، فضلاً عن غيره، وهذا أمر لا يمكن المداواة، بدونه وحسبك، ابن الجزار على تقدمه فى هذه الصناعة وضع فى أرض مصر كتاباً مفرداً لم يبين فيه مزاجها، ولا شرح حالها، وعرض له مع ذلك سهواً فى مواضع كثيرة من كلامه، وإذا كانت هذه الأشياء على ما وصفنا من الصعوبة، فليس يتهيأ للإنسان إدراكها إلا بعد السهر الطويل فى قراءة كتب الأوائل، والتفكير فى معانيها ومعاناة ذلك

(١) عشرين هكذا جاءت فى الأصل .

بالنفس، والبدن ليلاً ونهاراً، بقدر استطاعة الإنسان وقد وصف أبقراط وجالينوس صعوبة هذا الأمر فقال أبقراط : العمر قصير والصناعة طويلة، والوقت ضيق، والتجربة خطر ، والقضاء عسر .

وجالينوس وصف صعوبة الأمر فى كثير من كتبه ، فمتى أهمل الإنسان الأشياء التى لا بد منها وتوكل على الأمانى والأباطيل وآثر الراحة أدركه الموت، وفاته طيب ثمرها وحسن عاقبتها، وصار فى الآخرة إلى الخسران (والعذاب الأليم)[1] ، وإذا اجتهد فيما يحتاج إليه حصل له حظ الدنيا والآخرة، فإن فاته حظ الدنيا لم يفته حظ الآخرة . وليس عقوبة الطبيب الجاهل فى الآخرة بصغيرة وبكثرة ما يدخل على (الناس)[2] من المضار بل عذابه أزيد كثيراً من عذاب غيره من اللصوص وقتله الأنفس، فإياك أيها الطبيب إياك والانشغال عن صناعتك بلذات البهائم[3] من الأكل، والشرب، والنكاح[4] وجمع المال والمفاخر بحب الصَّلَف[5] والمركوب والملبوس وغير ذلك من الأشياء التى يفاخر

---

(١) واليم العذاب : هكذا فى الأصل .

(٢) جاءت (الإنسان) فى نسخة دار الكتب .

(٣) البهائم : مفردها بهيمة - كل ذات أربع قوائم من ذوات البر والماء (المخصص جـ ١٣٣/٢) والبهيمة : الصغير من أولاد الغنم والضأن والمعز والبقر من الوحوش وغيرها الذكر والأنثى فى ذلك سواء (لسان العرب م ٢٧٩/١) .

(٤) النكاح : التزويج لسان العرب م ٧١٥/٣ .

(٥) الصلف : لم أجد معنى للصلف وربما هى (الصُّلج) وهى الدراهم الصحاح الخالصة (معجم الرافد جـ ١٤٠/٢) .

بها . وتموه على العوام بمخالطة ذوى اليسار وتطويل اللحية والشيب، فإن الاشتغال بذلك كله ، يعوقك عن التخرج من صناعة الطب، فأن هذه الأشياء هى التى يذمها جالينوس وغيره من الفلاسفة والأطباء، ولقد صارت بحيث يرغب فيها أطباء مصر اليوم أكثر من كل شىء فأن عهدى بهم وقد قصدنى رجل منهم فى بعض الأوقات ، وسألنى عن أدوية تطويل (شعر)[1] اللحية ويولد فيها الشيب فتعجبت منه وسألته أن يصدقنى عن حاله، فقال: إن النافع اليوم بمصر فى صناعة الطب، طول اللحى مع الشيب وحسن الملبوس والمركوب، والمفاخرة بذلك، ألا ترى أن الناس يعظمون من اجتمعت له هذه الخصال ولا ينظرون فى شىء آخر فقلت له : صدقت وهذا الذى صيّر باعة الأدوية أحذق من الأطباء بها . وأعرف جماعة منهم صاروا من وجوه أطباء هذه المدينة ، ثم أوصيته بما ينبغى ، وحذرته ، وعرفته ما قال جالينوس من أن الطبيب الجاهل أشر على الأبدان من الوباء الحاضر ومن اللصوص، فإن اللصوص يرغبون فى الأموال والطبيب الجاهل يأخذ الروح والمال، وما أظنه قبل منى هذه الوصية .

ولقينى أيضًا منذ أيام بعض أطباء (الفسطاط)[2] المشهورين، وأخذ

(١) المقصود هنا تطويل شعر اللحية لأن اللحية شعر الذقن والخدين وجمعها لحى (معجم الرافد ٦) .

(٢) سقطت من نسخة المتحف العراقى .

بيـدى ولا منى على تأخرى عن الرؤسـاء وجـمـع المال ، وانشـغـالى عن ذلك بقراءة (الكتب)[1] والعمل بها والدرب فيها وإهمالى أمرًا ما الناس عليه من محبة الدينار والدرهم ، فقلت : إن جالينوس ليس يرضى أن يسمى هؤلاء الأطباء الذين يواظبون على أبواب الرؤساء بوابى الأبواب، وإنما هم أخس من ذلك، ولست أرضى لنفسى هذه الحالة فانتهرنى، وقال هذه منحسة، ما أظنها تتخلى عنك ومرض لا يتخلى، ومضى وتركنى .

وقال آخر إذا رأيت إنسانًا ينظر فى كتاب، فهو منحوس[2]، ولقينى أيضًا منذ أيام شيخ منهم ، فأخذ يسألنى عن البحران، فإذا به لا يعرف ذلك ولا يعرف منه سوى اسمه، ولقد أقام معى بعض اليوم وأنا أفهمه معنى البحران، وما أظنه فهم، ودخلت إلى بعض (الأعلام فوجدت به سوء نفس من ضغط فى رئته، فقال لى بعض أهله)[3] ذكر فلان وسموه لى وهو من وجوه أطباء وأحسنهم حالاً بعليلكم هذا مشوص[4] فتعجبت من ذلك وقلت لهم اعلموا أن الشوصة[5] لا بد أن يكون معها

(١) جاءت فى نسخة دار الكتب (كتب الأوائل) .

(٢) منحوس : وهو نقيض المسعود ، والنحس نقيض السعد (المنجد ٧٩٤) .

(٣) سقطت من نسخة المتحف العراقى .

(٤) مشوس : مصاب بمرض الشوصة .

(٥) والشوصة : هو ورم حاد فى الحجب التى على الصدر تحت الحجاب الحاجز. السجزى: مخطوطة الطب ٣٩ .

أما على بن رضوان فلم يفرق فى كتابه هذا بين الشوصة وذات الجنب كابن سينا فى كتابه القانون جـ٢٣٨/٢ وكذلك ابن الجزار فى كتابه الفروق بين الاشتباهات فى =

حمى دائمة ووخز وسعال وهى ذات جنب خالصة، وليس بعليلكم شيء من هذا . وأنا أقصى عليكم من أخبارهم بعض ما هم عليه من التمويه والجهل كيما تحذرهم ، ولعل السلطان ينظر فى أمورهم فلا يمكن أحداً منهم من التكسب بهذه (الصناعة)[1] إلا أن يكون حاذقاً ، ويعرف عليهم أفضلهم ليقتدى به الباقون ، فيكون ذلك سبباً لزوال هذه المحنة .

= العلل ٥٢ فقد قال : (إن الشوصة وذات الجنب اجتمعا فى أكثر الدلائل وافترقا بالمحل، فالشوصة يقال على ورم العضل الذى فى الأضلاع، أما ذات الجنب فيقال على ورم الغشاء المستبطن للأضلاع ومن الناس من يطلق اسم ذات الجنب على الشوصة والشوصة على ذات الجنب) .

(١) سقطت من نسخة المتحف العراقى .



٨- فى أنه ينبغى أن يختار السكن بمصر وإن كانت تفعل فى الأبدان رداءة

أما أرض مصر فينبغى أن يؤثر السكن بها لأمر هين على هذا النحو وقد قلنا أن الأمراض التى تعرض للأبدان بمصر فيها ما يمكن زوالها وظاهر أيضًا أن أخلاق النفس يمكن مداواتها كما قيل فى كتب الأخلاق وعلى أن شرور أنفس المصريين سريعة القبول للعلاج لأن شرورهم ضعيفة دنيئة غير مستعصية، فما يكره إذن من أجله السكنى بمصر سهل الزوال، وأيضًا فلأن مصر كثيرة العمارة والناس والمواضع التى هى تحالها هى أكثر تمدنا فالإنسان بالطبع مهد سكناه إذن فى المواضع التى تلائمه أوفق وأفضل لكثرة ما يجد فيها من الأشياء التى يضطر إليها فى حياته .

وأيضًا فأرض مصر قليلة الفتن والحروب لسكون أنفس أهلها إلى (...)[1] (وضعفهم عن الجهاد) فالسكنى إذن بمصر ينبغى أن توثروإن كانت أسعار مرتفعة لمكاسب كثيرة (...)[2] .

والحمد لله كثيرًا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا.

كتبت نسخة دار الكتب سنة ١٠٩٩ .

وكتبت نسخة المتحف العراقى سنة١١٩٠ فى ٢٨ شعبان من هذه السنة.

(١) غير واضحة فى الأصل .
(٢) غير واضحة فى الأصل .

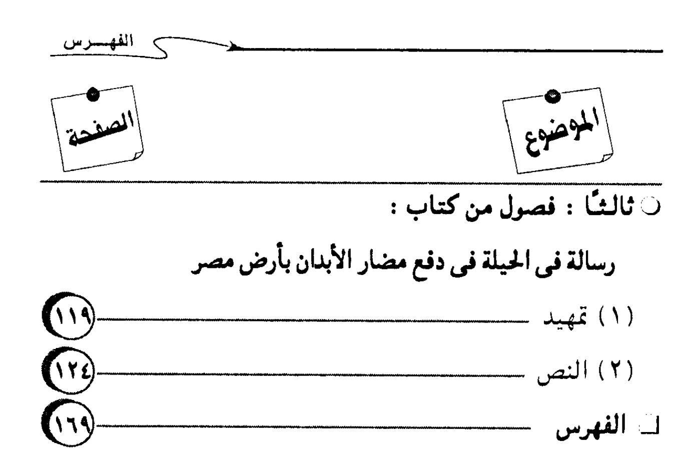
الفهرس

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الفصل الثانى

مختارات من نصوص على بن رضوان النقدية


الموضوع
الصفحة

مؤلفات أ. د. مصطفى النشار

(١) فكرة الألوهية عند أفلاطون وأثرها فى الفلسفة الإسلامية والغربية :

- صدرت الطبعة الأولى عن دار التنوير - بيروت ١٩٨٤م.
- صدرت الطبعة الثانية عن مكتبة مدبولى بالقاهرة ١٩٨٦م.
- صدرت الطبعة الثالثة عن مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة عام ١٩٩٧م.
- صدرت الطبعة الرابعة عن الدار المصرية السعودية بالقاهرة ٢٠٠٥م.

(٢) نظرية المعرفة عند أرسطو:

- صدرت الطبعة الأولى عن دار المعارف بالقاهرة عام ١٩٨٥م.
- صدرت الطبعة الثانية والثالثة عن نفس الدار عامى ١٩٨٧-١٩٩٧م.
- صدرت الطبعة الرابعة عن دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة عام ٢٠٠٠م.



(٣) نظرية العلم الأرسطية - دراسة فى منطق المعرفة العلمية عند أرسطو:

- صدرت الطبعة الأولى عن دار المعارف بالقاهرة عام ١٩٨٦م.
- صدرت الطبعة الثانية عن نفس الدار عام ١٩٩٥م.
- صدرت الطبعة الثالثة عن دار الثقافة العربية بالقاهرة عام ٢٠٠٠م.

(٤) فلاسفة أيقظوا العالم:

- صدرت الطبعة الأولى عن دار الثقافة للنشر والتوزيع بالقاهرة عام ١٩٨٨م.
- صدرت الطبعة الثانية عن دار الكتاب الجامعى بالعين، دولة الإمارات العربية المتحدة عام ١٩٩٠م.
- صدرت الطبعة الثالثة عن دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة عام ١٩٩٨م.

(٥) نحو رؤية جديدة للتأريخ الفلسفى باللغة العربية:

- صدرت الطبعة الأولى عن وكالة زووم برس للإعلام بالقاهرة عام ١٩٩٥م.
- صدرت الطبعة الثانية بعنوان «نحو تأريخ عربى للفلسفة» عن دار قباء عام ٢٠٠١م.

(٦) نحو تأريخ جديد للفلسفة القديمة - دراسات فى الفلسفة المصرية واليونانية.

- صدرت الطبعة الأولى عن وكالة زووم برس للإعلام بالقاهرة عام ١٩٩٢م.
- صدرت الطبعة الثانية عن مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة عام ١٩٩٧م.

(٧) مدرسة الاسكندرية الفلسفية بين التراث الشرقى والفلسفة اليونانية:

- صدرت الطبعة الأولى عن دار المعارف بالقاهرة عام ١٩٩٥م.

(٨) فلسفة التاريخ - معناها ومذاهبها:

- صدرت الطبعة الأولى عن وكالة زووم برس للإعلام بالقاهرة عام ١٩٩٥م.

(٩) التفكير الفلسفى للصف الثالث الثانوى الأدبى (بالاشتراك):

- صدر عن وزارة التربية والتعليم بدولة الإمارات العربية المتحدة، نشرته دار الغرير للطباعة والنشر، دبى عام ١٩٩٥م.

(١٠) التفكير المنطقى للصف الثالث الثانوى الأدبى (بالاشتراك):

- صدر عن وزارة التربية والتعليم بدولة الإمارات العربية المتحدة، نشرته دار الغرير للطباعة والنشر، دبى عام ١٩٩٥م.

(١١) مكانـة المرأة فى فلســفــة أفـلاطون - قـراءة فى مــحــاورتى «الجمهورية والقوانين»:

- صـدرت الطبعـة الأولى عن دار قـبـاء للطبـاعـة والنشـر والتـوزيع بالقاهرة عام ١٩٩٧م.

- صدرت الطبعة الثانية عن نفس الدار عام ٢٠٠١م.

(١٢) من التاريخ إلى فلسفة التـاريخ - قراءة فى الفكر التاريخى عند اليونان:

- صـدرت الطبـعـة الأولى عن دار قـبـاء للطبـاعـة والنشـر والتـوزيع بالقاهرة عام ١٩٩٧م.

(١٣) المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية:

- صـدرت الطبـعـة الأولى عن دار قـبـاء للطبـاعـة والنشـر والتـوزيع بالقاهرة عام ١٩٩٧م.

(١٤) مدخل لقراءة الفكر الفلسفى عند اليونان:

- صـدرت الطبـعـة الأولى عن دار قـبـاء للطبـاعـة والنشـر والتـوزيع بالقاهرة عام ١٩٩٧م.

(١٥) مدخل جديد إلى الفلسفة:

- صدرت الطبـعـة الأولى عن دار قـبـاء للطباعـة والنشر والتوزيع، القاهرة عام ١٩٩٨م.



- صدرت الطبعة الثانية عن نفس الدار عام ٢٠٠٣م.

(١٦) الخطاب السياسى فى مصر القديمة:

- صدرت الطبعة الأولى عن دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة عام ١٩٩٨م.

(١٧) تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقى (الجزء الأول) السابقون على السوفسطائيين:

- صدرت الطبعة الأولى عن دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة عام ١٩٩٨م.
- صدرت الطبعة الثانية عن نفس الدار عام ٢٠٠٤.

(١٨) ضد العولمة:

- صدرت الطبعة الأولى عن دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة عام ١٩٩٩م.
- صدرت الطبعة الثانية عن نفس الدار القاهرة عام ٢٠٠١م.

(١٩) فى فلسفة الثقافة:

- صدرت الطبعة الأولى عن دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة عام ١٩٩٩م.

(٢٠) تطور الفكر السياسى القديم من صولون حتى ابن خلدون:

- صدرت الطبعة الأولى عن دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة عام ١٩٩٩م.

(٢١) تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقى (الجزء الثانى) السوفسطائيون - سقراط - أفلاطون:

- صدرت الطبعة الأولى عن دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة على ٢٠٠٠م .

- صدرت الطبعة الثانية عن نفس الدار عام ٢٠٠٤م.

(٢٢) بين قرنين - معا إلى الألفية السابعة:

- صدرت الطبعة الأولى عن دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة عام ٢٠٠٠م.

(٢٣) رواد التجديد فى الفلسفة المصرية المعاصرة فى القرن العشرين.

- صدرت الطبعة الأولى عن دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة عام ٢٠٠٢م .

(٢٤) أرسطوطاليس - حياته وفلسفته:

- صدرت الطبعة الأولى عن دار الثقافة العربية، القاهرة ٢٠٠٢م.

(٢٥) أعلام التراث الفلسفى المصرى - ذو النون المصرى رائد التصوف الإسلامى:

- صدرت الطبعة الأولى عن دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة عام ٢٠٠٣م .

(٢٦) أعلام التراث الفلسفى المصرى - زكى نجيب محمود والحوار الأخير:

- صدرت الطبعة الأولى عن دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة عام ٢٠٠٣م .

(٢٧) ما بعد العولمة - قراءة لمستقبل التفاعل الحضارى:

- صدرت الطبعة الأولى عن دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة عام ٢٠٠٣م.

(٢٨) حقوق الإنسان المعاصر بين الخطاب النظرى والواقع العملى:

- صدرت الطبعة الأولى عن الدار المصرية السعودية للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة عام ٢٠٠٤م.

(٢٩) ثقافة التقدم وتحديث مصر:

- صدرت الطبعة الأولى عن الدار المصرية السعودية بالقاهرة عام ٢٠٠٤م.

(٣٠) الفكر الفلسفى فى مصر القديمة:

- صدرت الطبعة الأولى عن الدار المصرية السعودية بالقاهرة عام ٢٠٠٤م.

(٣١) تطور الفلسفة السياسية (من صولون حتى ابن خلدون):

- صدرت الطبعة الأولى عن الدار المصرية السعودية بالقاهرة عام ٢٠٠٥م.

(٣٢) مدخل إلى الفلسفة:

- صدرت الطبعة الأولى عن الدار المصرية السعودية بالقاهرة عام ٢٠٠٥م.

